الشيخ عثمان بن فودي في نيجيريا والإمام المهدي في السودان ودورهما في تصحيح العقيدة الإسلامية ومقاومة التغلغل البريطاني دراسة مقارنة

أ . هدى عبد الرحمن العلام
جامعة سبها

شهد القرن التاسع عشر ، في مطلعه وآخره ، الكثير من الحركات الإصلاحية الدينية التي قادها زعماء وشيوخ ، ينتسبون للطرق والزوايا الصوفية التي انتشرت في هذا القرن بالقارة الأفريقية ، حيث قامت في كثير من أرجائها محاولات مخلصة لإخراج المسلمين من غفلتهم ، وإيقاظ وعيهم وبعث النشاط فيهم مجدداً ، ومقاومة التغلغل الاستعماري البريطاني فيها ، سواء أكان ذلك عن طريق الدعوات السلمية ، أو الحركات الجهادية الدينية (التجديدية) التي قادها المتصوفون .

فقد كانت في مطلع هذا القرن في غرب أفريقيا المعروف لدى الجغرافيين والمؤرخين باسم "بلاد السودان الغربي" الممتد من بحيرة تشاد والكمرون شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً ، وهو على صلات تجارية ودينية بالدول العربية الإسلامية في مشرقها ومغربها ، ممثلة في حركة الشيخ عثمان بن فودي (**1808 ـ 1817**) في بلاد الحوصا ، شمال نيجيريا ، وفي أواخر القرن كانت في حركة الإمام محمد المهدي في

السودان (**1881 ـ 1885**) .

فالحركتان تضمنت أهدافهما تكوين مجتمع إسلامي صـرف في نظمـه وتقاليـده وعاداته مع تصحيح العقيدة الإسـلامية مـن الـشوائب العالقـة بهـا ، ناهيـك عـن مقاومـة الحكم الأجنبي سواء التركي المصري أو الاستعماري البريطاني .

من هنا ركزت الورقة البحثية على تسليط الأضواء على دور كل من الشيخ عثمـان ابن فودي والإمام محمد المهدي ، وذلك باستعراض مركـز الشخـصية والنـشأة الفكريـة والصوفية ، وأوضاع مناطقهما التي اعتبرت أسباباً مؤدية لظهورهمـا ، وشـكلت بـدورها أبعاداً سياسية واقتصادية واجتماعية (ثقافية ودينية) لحركتهما ، وكذلك محاولة الوقـوف عند مراحل نضالها بإيجاز ، والأهداف المبتغاة منهم في ذلك ، ثم النتائج والآثار المترتبة على حركتيهما .

لكي نتمكن في نهاية الورقة من عقـد مقارنـة بينهمـا للوقـوف عنـد أوجـه الـشبه والاختلاف بينهما ، وقد ذكرنا سابقاً أن مطلع القـرن التاسـع عـشر شـهد حركـة الـشيخ عثمان بن فودي (**1808 ـ 1817**) فستكون البداية به .

دور الشيخ عثمان بن فودي في بلاد الحوصا (شمال نيجيريا)

الشيخ عثمان هو عثمان بن محمد بن عثمان بن صالح بن هـارون بـن محمـد بـن غورطو بن حبو بن محمد تنبو بن أيـوب بـن ماسـرات بـن أيـوب بـن بابـا بـن موسـى المعروف بجكل ، والمهاجر بجماعته من فوتا تورو ـ إحدى عواصم الفـولانيين ـ وقـد لقب والد الشيخ وهو محمد بفودي « أي الفقيه أو المتعلم » وأمه هي حواء بنـت محمـد ابن عثمان بن حم بن عال ، وأمهما رقية ، وجدته أم أبيه هي مريم بنت جبريل بـن حـم ابن عال . [1]

كل هذه الرموز في بيت الشيخ عثمـان كانـت مـشهورة ، كـونهم علمـاء في علـوم التفسير والحديث والفقه ، وبالتالي اشتهر البيـت كلـه بالـصلاح والخـير والـورع والعلـم وحفظ القرآن الكريم ، إضـافة لأعمامـه وأخوالـه ، وبالتـالي ثـراء هـذا البيـت بالرجـال

(1) انظر كلاً من : محمد بلو ، انفاق الميسور في تاريخ بـلاد التكـرور ، مطـابع الـشعب ، القـاهرة ، بـلا ت ، ص22 ، وكذلك نجمة احميدات ، فتح البصا ئر في تحقيق علوم البواطن والظـواهر للـشيخ عثمـان بـن فـودي (1755 ـ 1817) دراسة وتحقيق ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة سبها ، 2004 ، ص11 .

العلماء [1] كان يشكل أرضية خصبة ، وقوية التأثير في حياة وترعرع الشيخ عثمان .

ويتفق أنه ولد في قرية دغل (Degal) من أرض غوبر [2] وذلك في أوخر شهر صفر عام **1168** هـ وهو يوافق منتصف شهر الكانون ديسمبر **1754** [3] .

ونظراً لما شهدته المنطقة عند ولادته من ضلال وبعد عن الدين وكثرة مفاسد ، فقد ذكر لنا محمد بلو (ابن الشيخ) في كتابه "إنفاق المسيور تاريخ بلاد التكرور" ، تكاثر الروايات بالبشارات التي تنبئ بولادة الشيخ من رجال ونساء معروفين بالصلاح والتقوى ، منهم الشيخ وِلِدْيدْ (من الأولياء الصالحين المتقين) الذي قال لجماعته : « ولي من أولياء الله . . . يظهر في هذه البلاد ، ليجدد الدين ويحيي السنة ، ويقيم الملة ، فمن أدركه فليتبعه ، فعلامته أنه يجاهد أولاً باللسان حتى يتبعه أكثر الموفقين ثم يجاهد بالسنان (السيف) ، ويملك هذه البلاد ، وليخرجن أمير برنو من داره كما أخرجنا من ديارنا ويملكها » [4] ، وكذلك بشرت به الوليه الصالحة الفلاتية (أم هاني) التي قالت : « يظهر في هذا القطر السوداني ولي من أولياء الله ، يجدد الدين ويحيي السنة ، ويقيم الملّة ، ويتبعه الموفقون ويشتهر في الآفاق ذكره ، ويقتدي العام والخاص بأمره ، ويشتهر المنتسبون إليه بالجماعة ، ومن علامتهم أنهم لا يعتنون برعي البقر كعادة الفلاتيين ، ومن أدرك ذلك الزمن فليتبعه » [5] ، بالإضافة للإشارات المستندة على قول الرسول ﷺ المأثور : « إن الله يبعث لهذه الأمة عند رأس كل قرن من يجدد لها دينها » [6] . الذي

(1) محمد بلو ، إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرو ، مصدر سابق ، ص227 ، وكذلك حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1986 ، ص261 .

(2) تقع شمال وادي ريما أي شمال نهر سوكوتو ، Reema وهي في المرتفعات الغربية ينظر علي أيوب ناجي ، لمحات عن الإسلام في نيجيريا بين الأمس واليوم ، دار الكتاب الحديث ، بلا ت ، ص63 .

(3) ينظر كلا من : شوقي الجمل وعبد الله عبد الرزاق إبراهيم ، تاريخ أفريقيا الحديث المعاصر ، المكتب المصري القاهرة ، 1998 ، ص138 . علي أيوب ناجي ، لمحات عن الإسلام ونيجيريا بين الأمس واليوم ، ص 63 . محمد بلو ، مصدر سابق ، ص14 ، حسن عيسى عبد الظاهر ، الدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا ، الزهراء للإعلام العربي ، ط1 ، 1991 ، ص191 ، نجمة احميدات ، فتح البصائر في تحقيق علوم البواطن والظواهر ، مرجع سابق ، ص12 .

(4) محمد بلو ، مصدر سابق ، ص32 .

(5) المصدر نفسه ، ص27 ، وكذلك نجمة احميدات ، ص13 .

(6) عزيز بطران ، الثورات الإسلامية في أفريقيا الغربية في القرن التاسع عشر ، تاريخ أفريقيا العام ، المجلد السادس(القرن التاسع في أفريقيا حتى ثمانيناته) ، اليونسكو ، ط2 ، 1997 ، ص 608 ـ 609 .

كان منتشراً في غرب بلاد السودان .

نشأته وحياته الفكرية والدينية

نشأ في أسرته على التربية القويمة والخلق الحسن الطاهر ، وبالتالي استوى عـوده على التدين والأخلاق ، والتولع بالعبادة والعلم منذ صغره ، حتى لقب بـذي النـورين أي العلم والعمل ، حيث نشأ منـذ صـغره في الـدعوة إلى الله تعـالى ، والاجتهـاد في العلـم والتعليم وإرشاد العامة والخاصة ، وعرف عنه أنه كان خطيباً بليغاً شاعراً فصيحاً فاضـلاً حسن الخلق ، جميل العشرة ، كـريم الـصحبة ، محققـاً شـديد المعارضـة كـثير الحيـاء والشفقة على الخلق ، وما إن درس العلوم العربية وكتبها ، حتى بعد عن أسرته للاستزادة من التعلم ، فكان من شيوخه الذين تتلمذ عندهم الشيخ عبد الرحمن بن حمد المجتهد ، والشيخ مصطفى بن عثمان ، ثم أخـذ تفـسير القـرآن الكـريم كـاملاً مـن الـشيخ أحمـد ابن محمد الأمين ، وكذلك الشيخ هاشم الزنغري ، وصحيح البخاري من الـشيخ محمـد ابن راج ، ثم رحل إلى أغادس ـ جنوب الصحراء ـ ليتتلمذ لدى الشيخ جبريل بـن عمـر الذي لازمه مدة عام ، للاستزادة في علوم التفسير والصحيحين ، حيث كان هذا الشيخ من أعلام عصره الـذين خـتم الـشيخ عثمـان تعليمـه علـيهم ، ليعـود إلى بـلاد الحوصـا في العشرين من عمره (أي حوالي **1774 ـ 1775**) ليقوم بـالتعليم والـوعظ والـدعوة بعـدما كانت بيئته العلمية محلية بحتة ، على أيدي شيوخ كانوا من علماء المنطقة (من الفولاني ـ والحوصا ـ والبرنـو) تلقـوا تعلـيمهم الأول وعلـومهم في الـبلاد العربيـة ، ودرسـوا في الأزهر وبلاد المغرب العربي . [1]

وهكذا أثرت البيئة الدينية في تفكير الشيخ وتكوينه العلمي ، فا نحـصرت ثقافتـه في مجال العلوم الدينية كالفقه والحديث وتفسير القرآن ، والعقيدة والتـصوف ، ويمكـن أن نحـصر جوانـب فكـره في الفقـه في كتـاب هدايـة الطـلاب ، وفي أصـول الـدين في كتبه :أصول الدين ، وتنبيه الأمـة المحمديـة إلى قـرب هجـوم أشـراط الـساعة ، وعمـدة العلماء ، وفي التصوف ، هو متصوف علـى الطريقـة القادريـة نـسبة للـشيخ عبـد القـادر الجيلاني .

(1) حول بيئته الفكرية والثقافية ينظر: محمد بلو ، مصدر سابق ، ص66 . نجمة احميدات ، مرجع سـابق ، ص 28 ـ 37 ، وعبد الله الـرزاق إبـراهيم ، المـسلمون والاسـتعمار الأوروبـي لأفريقيـا ، مجلـة عـالم المعرفـة ، الكويـت ، 1989 ، ص39 ، وعلي أيوب ناجي ، لمحات عن الإسلام في نيجيريا ، ص 64 ـ 65 .

وما يؤكد مدى تقدير الشيخ عثمان للشيخ عبد القادر الجيلاني ، والتوسل لله عن طريقه؛ لتأكيد دعوته ، هو الرؤيا التي رآها في حضرة الرسول ﷺ ، والشيخ عبد القادر الجيلاني ، عندما أمره بفعل المعروف والنهي عن المنكر لبدء حركته الجهادية ، مما سنذكره لاحقاً [1] ، كذلك القصيدة التي عرّبها عبد الله بن فودي (أخو الشيخ) في واحد وأربعين بيتاً ، في كتابه "تزيين الورقات" التي قالها في الشيخ عثمان وهي :

يا رب عالـــــــم باطن كالظاهر	أجـــب الذي يدعو بعبد القادر
يا رب يا متفضـــــــلاً بعباده صلِّ	بفضلك على الشيخ عبد القادر
إن المـــــــرء لـدى الإكبار يلتجئ	فلجأت عنـــد الشيخ عبد القادر
إن كنت لم أحســن فشيخ محـــسن	وسيـلتي درجات عبـد القادر
أجـــــــب الدعاء سامع مع قارح	بالنظم من درجات عبد القادر [2]

ومن مؤلفاته في الطريقة القادرية هي السلسلة القادرية ، والسلاسل الذهبية للسادة الصوفية ، وتبشير الأمة الأحمدية ببيان بعض مناقب (فضائل) الطريقة القادرية ، وحصن الإفهام [3] ، ومن كتبه الأخرى تحذير الإخوان من إدعاء المهدية آخر الزمان .

ومن هنا كانت وجهة الشيخ في تناول العلوم تتمحور حول خمسة أصول فكرية هي :

1. الرجوع إلى الكتاب والسنة فيما يتعلق بالأصول والفروع والدعوة للاعتقاد والعمل بها .
2. التمسك بالسنة النبوية في بيان أمور الدين والعقيدة وأركانها ، مثلما ورد في كتاب أصول الدين وعمدة العلماء .
3. تصحيح المفاهيم الخاطئة لدى الطلبة في التوحيد والفقه والتصوف إلى الصواب ، مثل كتابه مرآة الطلاب وبيان البدع الشيطانية .

(1) عزيز بطران ، الثورات الإسلامية في أفريقيا الغربية في القرن التاسع عشر ، تاريخ أفريقيا العام ، المجلد السادس ، ص 610 .

(2) نجمة احميدات ، ص48

(3) شوقي الجمل وعبد الله عبد الرزاق ، مرجع سابق ، ص148 ، وكذلك حسن أحمد محمود ، ص267 وكذلك نجمة احميدات ، ص49 .

4. إبطال البدع وذلك بإخماد البدع الشيطانية ورد العادات الرديئة مع بيان أسس السلوك الحميد والقويم بالتربية والتعليم والتوحيد ، والالتزام بالطريقه القادرية والتمسك بآدابها ، وهذا وارد في كتابه : (وثيقة الإخوان وطريق الجنة) .

5. نشر الإسلام وعلومه بين الناس كل حسب مستواه الإدراكي ، وذلك عن طريق نشر العلوم الشريعة ، والبت في قضايا المجتمع وما يتعلق بأمور الرعية والرأي، ومستوى العلاقات بين أهل الإسلام في إطار الفقه الإسلامي [1] .

وتحت هذه الأصول الفكرية الخمسة ، هناك فروع تمتد إلى كل أمور الإسلام وتتعرض لحياة المسلمين والقيام بها فرض عند الشيخ عثمان ، وهو ما أشار إليه كتابه إحياء السنة حيث يرى : أن الدعوة والنصح إما إيجاب وإما إرشاد [2] ويذكر ابنه محمد بلو أنه يخرج في كل ليلة جمعة ، يعظ الناس بالقرآن ويدرس الحديث ، والفقه والتصوف ، ويخرج في سائر الليالي بعد العشاء ، لشرح العلوم وتحوير المشكلات وتهذيبها [3] ، وبالتالي كان الترابط الفكري في طريقته بين الجانب الاعتقادي والتطبيقي ، وكذلك في مؤلفاته التي تزيد على الخمسين ، منها خمسة وأربعون مؤلفاً معروفاً لدينا [4] .

أسباب قيام الشيخ عثمان بن فودي بحركته الإصلاحية سلماً وحرباً

إن الأسباب المؤدية لقيام حركة الشيخ عثمان بن فودي الجهادية بالدعوى أولاً ، ثم بالحرب عديدة ومتنوعة ، ترتكز بالأساس على الأوضاع السائدة في إمارات الهوسا ـ الحوصا ـ السبع التي اختلف المؤرخون في تعديدها وهي غوبر Gobir، وكانو kano ، ودورا daura ، وكاتسينا katsina ، ورانو rano ، وزكزك أو زارما أو زازاو zazaw ، وجاران جابا بيرام biram أو زا مفارا zamfara ، فالخلاف في تحديد الإمارة السادسة

(1) نجمة احميدات ، ص56-57 .
(2) المرجع نفسه ، ص 57 .
(3) محمد بلو ، مصدر سابق ص94 - 95 وكذلك نجمة احميدات ص 58
(4) للاطلاع على هذه المؤلفات وموجز لما تحتويه ، انظر نجمة احميدات . ص61- 65 وعلى أيوب ناجي ، ص 104- 110 حيث أوردت اثني عشر مؤلفاً . وشوقي الجمل وعبد الله عبد الرازق ص 147 وحسن أحمد محمود ، ص267 .

والسابعة بالتحديد [1] .

وهذه الإمارات السبع المعروفة الآن بشمال نيجيريا ، كانت معروفة بموقعها الاستراتيجي وعلاقاتها التجارية والدينية من جهاتها الأربع مع بلاد المشرق والمغرب العربي ، خصوصاً بعد دخولها الإسلام حيث القوافل التجارية ، وقوافل الحجيج في كل موسم لا تخلو من أحد السلاطين ، وكثرة الوافدين من المغرب العربي مما أدى إلى انتشار وتوطيد التعاليم الإسلامية في مختلف جوانب الحياة ، ولاسيما بعدما تعرضت المنطقة قبل ذلك ، لهجرات قبائل الفولاني السلمية في القرن التاسع الميلادي ، وهم مسلمون منذ فترة مبكرة ، وإليهم ينتمي الشيخ عثمان بن فودي ، وقد ظلوا محافظين على دينهم .

وبعد ذلك يلاحظ أن الإسلام في هذه الإمارات قد مر بأربعة أدوار: أولها دور النفوذ والتهيؤ ، وثانيها دور الاعتناق والانتشار ، وثالثها دور النضوج والتحكم ، ورابعها دور التقهقر والتدهور وكان هذا الدور يمثل الفترة التي ولد فيها الشيخ وترعرع ، وقد كانت فترة اضطرابات سياسية ، لانشغال ملوك الإمارات بالحروب الداخلية ، الأمر الذي أدى إلى إضعاف إماراتهم وتحطيم اقتصادهم وتفشي السخط ، وخصوصاً عندما لجأ بعض الأمراء الوثنين إلى زيادة الضرائب على السكان ، لأجل الحصول على البنادق والبارود والخيول ، كما فرضت الضرائب والمكوس على القوافل التجارية ، الأمر الذي أدى إلى إبعاد التجار عن المنطقة ، ناهيك عن فرضهم لنظام إيرادات الأراضي ، الأمر الذي أدى إلى تفاقم السخط لدى كثير من الفلاحين [2] .

ناهيك عما ذكره محمد بلو في كتابه إنفاق الميسور بأن إسلام الرعية كان ظاهراً فقط ؛ لأن ما يعتقدونه ويقومون به خارج عن الشرع الإسلامي ، مثل الجحود بالبعث والحساب والثواب والعقاب والسجود لملوكهم ، وهناك من يؤدي الصلاة بالتيمم، فلا يتوضؤون إلا نادراً ، ومنهم من يؤدي فريضة الحج بأموال محرمة ، ومنهم من يؤدي زكاته من أجل مصالحه في الدنيا ، ومنهم من يعبد الأصنام ويقدم لها ، القرابين ، أما

(1) لايوجد اتفاق محدد بين المؤرخين كما هي الحال ، حسن إبراهيم حسن ، ص116 ، ونجمة احميدات ، ص17 وكذلك الخلاف موجود عند مؤرخ آخر هو زاهر رياض ، الممالك الإسلامية في غرب أفريقيا وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى ، مرجع سابق ، ص285 .

(2) نجمة احميدات ، ص 21 – 22 .

النساء فأغلبهن لا يصلين ولا يصمن إلا إذا كبرن في السن ، وكـثيرات مـنهم لا يعـرفن حقيقة التوحيد بعد ما أقروه باللسان ، ناهيك عن ترك الكثير من الفرائض، ومـع ذلـك فهم يتمسكون بحب النبي ﷺ ، حيث صنف الناس في عهد عثمان بـن عفـان بـن فـودي إلى ثلاث : فئة مؤمنة خالصة كانت قليلة ونادرة قبل ظهور الشيخ ، وفئـة تخلـط أعمـال الكفر بالإسلام وهم الأغلبية ، وفئة كافرة بالأصل ، أي لم يدخلوا الإسلام [1] .

وقد أكد الشيخ عثمان بن فودى هذه الأوضاع السائدة في مؤلفاته منها « وثيقة إلى جميع أهل السودان» مضيفاً سوء إدارة القضاء ، وشكا من أن حكـام إمـارات الهوسـا لا يتبعون الشريعة ، فهم لا يجلدون أو يرجمون الزاني أو الزانية ، ولا يقطعون يد الـسارق ولا رقبة القاتل العمد ، ولا أطراف من آذى بـدنياً شخـصاً آخـر ، أي أنهـم تخلـوا عـن قانون العين بالعين والسن بالسن ، طبقـاً لمـا ورد في القـرآن الكـريم ، واستعاضـوا عنـه بالعقوبـات الاقتـصادية ، الأمـر الـذي مـسّ الفقهـاء مـن الناحيـة الشخـصية ، فكـانوا في مقدمة من عارضه ، حيث اقتصر دورهم على تأدية الواجبات الدينية ، ولم يسمح لهم بالتدخل في الشئون السياسية ، فالحكام كانوا مهيمنين على الأمور الاقتـصادية والإداريـة لا يطلبون مـشورة العلمـاء ، لأن أكثـرهم كـان علـى طريقـة الجاهليـة الأولى ، وهكـذا استحكمت عوائـد الكفـار ، ومـن كـان مـسلماً فهـو تحـت حكـم ملـوكهم ، وأعـوانهم الطغاة . [2]

ومن الملوك الذين عاصرهم الشيخ عثمان في حكم وطنـه إمـارة غـوبر ، الملـك باباري (جان جواززو) المتوفي عام 1777م 1191هـ ، حيث ولد في عهده وعاصره حتى بلغ الثانية والعشرين ، وفي عهده انتهى الشيخ من طلب العلم ، وبدأ مرحلـة الـدعوة إلى الله منذ عام 1774م – 1188هـ ، متنقلاً ومرسلاً بعثاته لمختلف أمصار الحوصـا ؛ لكـي ينشر أفكاره لقادة الفولاني الذين يرون أنهم غرباء بفضل سياسة وقـسوة ملـوك إمـارات الحوصا ، الذين اثقلوا كواهلهم بالضرائب دون هوادة مما جعلهم يكرهـونهم ويحقـدون عليهم ، سواء في إمارة غوير أو غيرها [3] .

يليه عهد الملك باوا بن بابارى من 1191هـ 1777م إلى 1210هــ 1795م ، خـلال

(1) محمد بلو ، ص 58 - 97 .
(2) نجمة احميدات ، ص 23 وشوقي الجمل وعبد الله عبد الرزاق ص137 .
(3) نجمة احميدات ، ص 23 - 24 .

عهد هذا الملك اجتاز الشيخ مرحلة شبابه ، وأشرف في نهايتها على الأربعين ، فأكمل نضوجه واتسع نشاطه ورحلاته ودعوته في غوبر ، وما جاورها من ممالك الحوصا، خصوصاً عندما أوضح الشيخ للجموع المؤيدة له أن حجة مشروعية جهاده تكمن في أمر الرسول ﷺ ، والشيخ عبد القادر الجيلاني بحضور الصحابة والأولياء الصالحين له، بالدعوة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المنام ، وذلك عام 1794 (أي قبل عشرة أعوام من بدئه الجهاد الحربي عام 1804) حيث قص منامه كالتالي : « عندما بلغت أربعين سنة وخمسة أشهر وبضعة أيام ، دعاني الله إلى حضرته ، ورأيت سيد الأنس والجن ، سيدنا محمد ﷺ وكان معه الصحابة والأنبياء والأولياء فاستقبلوني [1] وأجلسوني وسطهم ، ثم أحضر سيدي عبد القادر الجيلاني ثوباً أخضر اللون وعمامة وضمهما رسول الله إلى صدره . . . وأجلسني عبد القادر الجيلاني ثم ألبسني الثوب ، ووضع العمامة على رأسا ثم ناداني « بإمام الأولياء» وأمرني بفعل المعروف ونهاني عن المنكر ، وقلدني سيف الحق لكي أستله ضد أعداء الله » [2] .

وقد كان (باوا) شديد الكره للشيخ لمكانته التي توافد عليها جموع الناس من كل صوب للاستفادة من علمه ، ولا سيما علوم التصوف ، وهنا حاول الملك التقرب له لجعله من حاشيته في القصر ، لكن الشيخ رفض وفضل أن يبين له الإسلام الصحيح ووضح له حقائقه ونفى عنها كل زيف ، وناشده في إقامة العدل في بلاده ، خصوصاً أن تباشير نجاح دعوته الإصلاحية الدينية هي ارتقاء مقاعد السلطة حكام من دعاة الإصلاح الإسلامي الديني ، مثل كانوا (السركي الوالي) وزارياً (السركي اسحق) وكاتسينيا (السركي عوزو) وفي جوبر وكبي وزامفارا ، وكان النجاح كبيراً في المناطق الريفية أعوام 1775 – 1795 [3] ، وبعدما رفض الشيخ عثمان عرض السلطان (باوا)، خطب في الناس يوم عيد الأضحى ، طالباً من السلطات اتباع الكتاب والسنة وكذلك :

- حرية الدعوة إلى الله في إرجاء إمارة غوبر .
- وأنه لاحد يمنع من الاستجابة لنداء الله .
- ويجب أن يقدر كل لابسي العمائم من العلماء .

(1) عزيز بطران ، مرجع سابق ص 610 .
(2) م لاست ، دولة الخلافة في السوكوتو وبلاد البورنو ، تاريخ أفريقيا العام ، مجلد 6 ص 627 .
(3) علي أيوب ناجي ، مرجع سابق ، ص65 .

- إطلاق سراح كل من سجنوا بغير وجه حق .
- يجب التخفيف من الضرائب التي فرضتها الإمارة على المسلمين .

ليعود الشيخ بعدها إلى دغّل مسقط رأسه ، وليتبعه كـثير مـن العلمـاء والجمـوع، تاركين ملكهم مع قلة منهم .

وفي عهد الملك (ياكب بن بـاوا) ، مـن 1210هـ 1795م إلى 1216هـ ـ 1801م، ازدادت دعوته ومكانته ورحلاته للمدن الواقعة في أسفل نهر النيجر ، وتعاظم مؤيدوه في زامفارة ووكبيو غوبر ، وأخذ هذا الملك يكيد للشيخ عدة مرات ، خصوصاً أن جماعتـه بدأت تنظم نفسها ، حسب ما أورده عبد الله بن فودى في كتابه تزيين الورقـات أن فكـرة الجهاد الحربي بلغت مبلغاً لا رجوع فيه عند الشيخ عثمان ، إذ يذكر أن جمـع الـسلاح قد بدأ منذ عام 1797 ، ولما ألحت الجماعة على إعلان الجهاد علـى الكفـار ، نـصحها ابن فودى بالتسلّح ، وأخذ يكثر من الـدعاء والتـضرع والاستـشفاع بالـشيخ عبـد القـادر الجيلاني ؛ ليعينه على إخضاع بلاد الهوسا للشريعة الإسلامية [1] .

وبعده عهد نافاتا Nafata ، مـن 1216 هـ 1801م إلى 1218 هـ 1803م ، الـذي تولى بعد وفاة (ياكب) ، حيت نمت وتميـزت جماعـة الـشيخ في المظهـر والتـصرفات داخل مجتمعهم ، وساروا في سلوكهم وعباداتهم وعقائـدهم علـى نهـج الإسـلام ، الأمـر الذي أزعج الطبقة الحاكمة لتقوم بإقناع الملك نافاتا بإصدار إعـلان ، يتـضمن مناهـضته للإسلام والمسملين ، ونصه هو : « أنه لم يرض لأحد بالإسلام إلا وارثه من أبائه وإن لم يرثه فليعد إلى ما وجد عليه آباءه وأجداده ، ولا يسمح لأحد بعـد اليـوم بلـبس العمامـة بعـد تـاريخ المرسـوم ، ولا تـضرب إمـرأة بخمارهـا علـى جبينهـا وهـذا إنـذاره في الأسواق » [2] .

يفهم من الإنذار إعلان الحرب على الشيخ وجماعته ، كما أنه زجر الدعاة إلى الله ومنعهم من الوعظ ، وأمر كل من اعتنق الإسلام وأهله مـن غـير المـسلمين ، أن يعـودوا إلى دين آبائهم وأجدادهم ، ومنع لبس العمامـة للرجـال والخمـار للمـرأة ، وبعـد وفـاة الملك متأثراً بمرض أصابه ، آل الأمر بعده إلى ابنـه يونـف ، الـذي كـان تلميـذاً للـشيخ

(1) عزيز بطران ، مرجع سابق ، ص 620 – 621 .

(2) علـي أيـوب نـاجي ، ص 68 ، شـوقي الجمـل وعبـد الله عبـد الـرزاق ص 138 - 139 ونجمـة احميدات . ص25 ومحمد بلو ، ص26 .

عثمان .

وأخيرا شهد عهد يونف Yunfa بن نافاتا، 1218 هـ 1803م إلى 1223 هـ 1808م ، زيادة الاضطرابات في غوبر ، فالملك أصبح بين تيارين : أحدهما يُبدي الاحترام والتوقير والوفاء بين التلميذ يونف وأستاذه ، والآخر التيار المعارض للدعوة الإسلامية في بلاطه ، وإحساسه في هذا الوضع الجديد كحاكم أن قوة الشيخ وجماعته، تزداد داخل مملكته وخارجها ، من هنا ضيق الملك على الشيخ وجماعته إلى أن قرر الشيخ الهجرة خارج غوبر ، وكانت الهجرة نقطة الانطلاق الفعلية بالنسبة للشيخ وجماعته، في سبيل الدعوة وكانت المرحلة الحاسمة في عمل رجال الإصلاح للعمل الجهادي الحربي ، وعمل الترتيبات النهائية ، كبناء الحصون وحشد القوى وجمع السلاح وتلقيب الشيخ بلقب "أمير المؤمنين" ، (ولا شك أن هذه الهجرة وبداية الحرب تشبه هجرة الرسول ﷺ وأول معاركه الجهادية ضد الكفار ، معركة بدر) . (1)

وبالتالي فإن عمره الآن في الخمسين (عام 1804 ـ 1754) ، حيث أصدر « وثيقة أهل السودان » المتضمنة سبعة وعشرين بنداً ، تبين الهدف من الجهاد ، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والهجرة من بلاد الكفار ، وتنفيذ أحكام الشرع ، وقتال الملك الكافر الذي لا يقول لا إله إلا الله ، وأقر أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب إجماعاً ، وأن الهجرة من بلاد الكفار واجب إجماعاً ، وأن تدمير الأمراء في البلدان واجب إجماعاً ، وأن الجهاد واجب إجماعياً (2) ، وكل هذا قد ارتبط بقول الرسول ﷺ في الحديث الشريف : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » وكذلك الآيتين : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (3) والآية : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (4) .

وبعد هذا الإعلان الرسمي للجهاد ، هاجر الشيخ من دغل إلى جودو Judu ، في

(1) نجمة احميدات ص25 ـ 26 ، وعزيز بطران ، ص620 – 621 ، زاهر رياض ص292 وشوقي الجمل وعبد الله عبد الرزاق ، ص 141 ، حسن إبراهيم ، ص 120.

(2) شوقي الجمل وعبد الرزاق ص 141 ، حسن محمود أحمد ، ص 264 ، عزيز بطران ص 608.

(3) سورة البقرة الآية 126 .

(4) سورة البقرة الآية 193.

21 فبراير 1804 ، ليبدأ منها معاركه ضد الملك يونف ، وجيشه على شواطئ شابكن كووتو Sabkin kowtto ، وبعد انتصاره تنبه ملوك كاتسينيا وكانوا وزاريا ودورا إلى خطرهم ، فانقضوا على أنصار الشيخ في إماراتهم ، لكن أنصار الشيخ انقضوا على أعدائهم ، بعدما أعطى الشيخ لكل من يثق به من أنصاره علماً باركه ، وأمرهم بأ ن يخلّصوا العالم من كفره ، وسرعان ما انتصروا في ضم كاتسينا وكانوا وزاريا وهديجا واداماو وجوبي وكاتا جوم ونوب وأيلورين ودورا وكازورا وبوشى ومساو ، حيث آثر أمراؤها الاستسلام ، وأقسموا يمين الولاء للشيخ ، وبالرغم من هذا إلا أن الشيخ فشل في الاستيلاء على عاصمة غوبر ، الكالاوا Alkalawa ، حيث هزم في موقعة تسو نتسوا س Tsuntsuas ، هنا نقض أمراء الولايات الأخرى العهد السابق .

ثم قاد الجيش الحرب مجدداً ، فسقطت زارايا رسمياً في أيديهم عام 1804 ثم كاتستيا 1805 ثم كانو ، وبعد فشلهم مجدداً في الاستيلاء على عاصمة غوبر ، أرجئ لعام 1808 لاستكمال تجهيزاتهم القوية ، حيث وفق جيش الشيخ بقيادة ابنه محمد بلو عام 1808 من الاستيلاء على الكالاوا وقتل ملكها يونف ، وبحلول يناير 1809 كانت جميع ولايات الهوسا الرئيسية قد استسلمت ، ولاذ سلاطينها أو ملوكها بالفرار، وكانت معركة غوبر من أعنفها ، حيث إن هذا الانتصار الكبير شبه بمعركة بدر التي تلتها عدة انتصارات ، ثم هزيمة في معركة أحد ، ثم انتصارات ، الأمر الذي جعلهم يشبهون معاركهم بمعارك الرسول ﷺ، كدليل على قوة وصحة نظريتهم ، كما أنه توسع نحو الشرق نحو إمبراطورية البرنو التي طلب سكانها المساعدة من حاكم كانم محمد الأمين الكانمي (الشيخ لامينو) ، لكن رغم هذا تمكن جيش الشيخ من احتلال جزء من إمبراطورية البرنو [1]، ليتم الاهتمام ببناء وتنظيم عاصمة الخلافة الإسلامية في السوكوتو، تحت قيادة أمير المؤمنين الشيخ عثمان بن فودي :

أما عن النتائج والآثار المترتبة على حركة الشيخ عثمان فهي كالتالي :

ما إن دانت إمارات الحوصا بأكملها ، وجزء من إمبراطورية البرنو للشيخ عثمان ابن فودي ، حتى تكونت دولة الخلافة الإسلامية فيها ، وكانت العاصمة في السوكوتو ،

(1) للاطلاع على تفاصيل المعارك ينظر كل من زاهر رياض ص 292 - 294 وعزيز بطران ، ص 628 ، 630، 664 ، وحسن محمود أحمد ، ص 265 وشوقي الجمل وعبد الرزاق ، ص 142 - 143 ، وعلى أيوب ناجي ، ص 70 ، 71.

وإذا حاولنا أن نجمل النتائج والآثار المترتبة على ذلك في مختلف أوجه الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية والاقتصادية ، فإننا لن نستطيع ، وذلك لأن هذه الآثار قد استمرت عقوداً من الزمن ، وكان الجزء منها إبان حياة الشيخ أعوام 1809 إلى عام 1817 ، و بعد وفاته أعوام 1820 إلى 1880 ، إلى أن سقطت دولة الخلافة الإسلامية تحت الاحتلال البريطاني عام 1903 ، فالتركيز يكون على مجمل الآثار المترتبة في حياة الشيخ .

الناحية السياسية

فمن الناحية السياسية ، نجده قسم دولته إلى قسمين : شرقي عهد به إلى ابنه محمد بلو ومركزه سوكوتو ، ويضم زامفار ـ كاتسينا ــ كانو ـ باوشي ، وغربي وضعه تحت يد أخيه عبد الله بن فودي ومركزه جوأندو (في إقيلم كبي) ويضم نوب ـ وندى ـ وبروجو ـ وايلورين؛ ليسهل تنظيم وإدارة الإمارات الجديدة ، حيث أعطى شارات وأعلاماً لإعوانه ، لمواصلة الجهاد في أطراف بلاد الحوصا ضد الوثنيين، والمسلمين الذين لا يتقيدون بأصول الإسلام ، لينتقل الشيخ بعدها لمدينة سيفاوا Sifaua ، وبالرغم من هذا التقسيم إلا أن الدولة تخضع لزعيم واحد ، وهو أمير المؤمنين ويخضع له كل الحكام الداخلين تحت لوائه .

وبالرغم من أهمية نتائج حركته الجهادية في نشر الإسلام الصحيح وبناء مجتمع مستقيم ، إلا أنه من الناحية الإدارية قد واجهته عدة مشاكل ناتجة عن انتصار حركته ، وهي تتعلق بتوفير العدد اللازم من الأشخاص للتعيين في مناصب الأمراء والقضاء والأئمة المحليين في المناطق الريفية والنائية ، وكذلك في بعض المدن وهنا كان الحل الاستثنائي لها بتعيين الأقارب والموظفين السابقين ، وأمام كونهم محل شك للحكومة الجديدة ، هنا كان عبء الإشراف عليهم كبيراً جداً ، ناهيك عن العدد الكبير من الشكاوى والمنازعات المعروضة على الشيخ من كافة أنحاء دولة الخلافة ، مثل المشاكل العالقة بين القادة العسكريين ، والعلماء حول توزيع المناطق فيما بينهم لإدارتها ، وغالباً ما تتم تسويتها إما بالقوة ، أو بقيام الطرف المتظلم بتسوية أوضاعه بشكل مستقل ، بعيداً عن منافسه ، وقصر ولايته على الشيخ مباشرة ، إضافة لمشاكل أخرى ناشئة عن سوء التصرف من جانب جيوش المجاهدين في أثناء الحرب ، مثل قضايا الأسرى وتحويلهم إلى عبيد ، والاستيلاء على الممتلكات والأراضي بدون حق .

وبالرغم من مجهودات الشيخ عثمان في الوقوف عندها وحلّها ، إلا أنه آثر

الاعتزال عن الأمور السياسية ، وذلك بالاكتفاء بـالوعظ والكتابـة عـام 1810 بعـدما أدى واجبه الديني ، الأمر الذي أثـار صـدمة لمؤيديـه مـن العلمـاء وغيرهـم ، وخـصوصاً أن بعضاً منهم كانوا يرون فيه المهدي المنتظر ـ في ظهوره وإصـلاحاته وانتـصاراته والآثـار المترتبـة علـى هـذه الانتـصارات ـ رغـم أنـه رافـض لهـذا التـشبيه ، وخـصوصاً أن له مخطوطة معنونة : بـ « تحـذير الإخـوان مـن إدعـاء المهديـة آخـر الزمـان» مـن 48 صفحة، اختص موضوعها بالمهدي المنتظر وعلاماته ، ومكان ظهوره المتوسـع ، ودور الفلانــي عنــدما يظهــر ، ولعــل صــدمة اعتزالــه لــدى مؤيديــه ، جعلــت أحــدهم وهو (أحمدولوبو) الذي عاد إلى وطنه (ماسنة) راغباً في إصلاح أحوالها شأن عثمان في بلاد الحوصا ، لكنه اختلف عنه بادعائه المهدية بأنه المهـدي المنتظـر المبعـوث؛ لانقـاذ المجتمع الإسلامي في ماسنه وماجاورها من الوثنية ، بكل ما يملـك مـن قـوة ، بحيـث انتشرت دعوته ، ووجد فيها الفولانيون فرصة لتوحيد صـفوفهم ، مثلمـا توحـد أخـوتهم تحت يد الشيخ عثمان في شمـال نيجيريـا معلنـاً الجهـاد عـام 1813 ، بهزيمـة البمبـارة الوثنيين ، ثم دخل تمبكتو عام 1827 ثم مدينة جنى ، وبذلك أنشأ إمارة إسلامية عظيمة الشأن إلى أن توفي عام 1844 ، ويخلفه ابنه الذي توفي عـام 1852 لتكـون ماسـنه هـدفاً لحركة إصلاحية أخرى ، تنبعث من بلاد لتكرور .

وهذا يدل على أن فكرة المهدي المنتظر كانت موجودة زمن حياة الشيخ عثمـان ، ثم بعد وفاته في غرب أفريقيا ، فهي منتشرة انتشاراً واسـعاً [1] ومـن ثـم اسـتغلت فكـرة المجدد الثاني عشر ، المنتظـر ظهـوره في القـرن الثالـث عـشر الهجـري (بـين 1785 – 1889) بعدما رفضها الشيخ عثمان بن فودي.

وبمرض الشيخ عثمان بن فودي عام 1815 ثم وفاته عام 1817 ، تولى محمد بلـو ابنه منصب الخلافة على الإمارات الـشرقية والغربيـة ، وأصـبح عمـه عبـد الله بـن فـودي يعرف بالوزير ، ومهما قيل عن تلك المشاكل والتطورات السياسية ، فـإن حركـة الـشيخ عثمان قد أوجدت دولة إسـلامية مـستقرة سياسـياً وأمنيـاً ، وأفـرزت مجتمعـاً جديـداً ، تحكمه طبقة جديدة من رجال الدين والعلماء الذين رفعهم الدين الإسلامي إلى مـصاف الأمراء ، ولم يكونوا من أصول ملكية .

(1) ينظر عزيز بطران ، ص 609 وما بعدها ، وكذلك ربن هاليت ، تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير ، ت الهادي بولقمة ، جامعة قاريونس ، بنغازي ، 1988 ، ص 376 – 377 .

الناحية الاجتماعية

ومن الناحية الاجتماعية ، فالآثار عديدة ، فقد أصبح الدين الإسلامي أساس النظام السياسي والاجتماعي في الدولة ، فقد تقلد العلماء ورجال الدين مناصب التدريس والقضاء ، وكان من الطبيعي أن يتمتع الحكام في الإمارات المختلفة بثقافة إسلامية، تمكنهم من حرية ممارسة أعباء وظائفهم ، ليتيسر لهم تطبيق الشريعة الإسلامية ، وبالتالي صارت طبقة رجال الدين ليست قاصرة على فئة ، وإنما مفتوحة لكل من يتعمق في الدين وثبتت أقدامه على طريق النضج والإرشاد والحجة ، وبهذا صار الدين الإسلامي أساس تشكيل طبقات المجتمع التي حملت مشعل الحضارة ، ونشر الدين ضد القبائل الوثنية .

كما حرم المجتمع شرب الخمر ، وأكل الحرام والأخذ بالثأر ، وأصبح الفرد فيه له كامل الحقوق مواطناً حراً كريما ، حيث بدأ الناس يحتفلون مجدداً بالمناسبات الإسلامية ، كعيد الفطر والأضحى والمولد النبوي الشريف ، وتم القضاء على العادات السيئة الخاصة بتعدد الزوجات خارج الإطار الشرعي (أربع زوجات فقط) ، وحرّض على العدل تمشياً مع القدوة الحسنة بالشيخ عثمان وزوجاته الأربع ، وهن عائشة وحواء وميمونة وخديجة ، إذ أقام لكل واحدة منهن بيتها الخاص ، وله منهن العديد من الأولاد والبنات .

وكما قضى على عادات ، مثل الندب على الأموات ، وتشريط الوجه ، وحل محلها قراءة القرآن في حجرة المتوفى والصلاة عليه ، ودفنه في مدافن عامة بدون شواهد على القبور ، كما حرم على النساء تشييع الجنازة ، وصارت ملابس الحداد للرجال الثوب الأبيض ، وللنساء أي ثوب بشرط أن يكون لباساً إسلامياً ، كما اشترط على المرأة البقاء في بيتها طوال فترة الحداد . إضافة لعادات إسلامية أخرى ، مثل الانتساب للآباء ، والتوريث بدل القرابة والسلطة الأمومية ، وساعد الدين الإسلامي على تفتيت النظام القبلي تدريجياً ، واتحدت القبائل تحت لواء دولة جديدة واحدة .

ومن العادات تسمية المولود في اليوم السابع وسط حفل يذبح فيه والد الطفل خروفاً أو ثوراً ، كما جرت تسمية المولود بأسماء أحد الأنبياء أو الصحابة ، وهكذا التزم المجتمع الذي أقامه ابن فودي بتطبيق الشريعة الإسلامية قولاً وفعلاً ، خصوصاً في مسائل الزواج والطلاق والاحتفالات الإسلامية الكبرى ، والتشجيع على عتق الرقاب من الرقيق شكراً لله ، وتكفيراً عن الذنوب ، أو مقابل ما أدّوه من خدمات ، كما

أنه نهى عن التمييز بين أبناء المحظية في الإرث ، وإن أبنـاء الجـواري هـم أحـرار ، كمـا فرضوا حظراً رسمياً علـى تـصدير الرقيـق المـسلمين للخـارج للـدول المـسيحية ، ولا يدفعون ضرائب ، والجواري يصبحن حرائر بوفاة أزواجهن ، وهذا دليل على نجاح هذه المفاهيم الإسلامية الاجتماعية .

الناحية الاقتصادية

ومن الناحية الاقتصادية صار الدين الإسـلامي أداه لتطـوير النظـام الاقتـصادي في دولة الخلافة ، وصارت المعاملات الإسلامية أساس التعامل في الأسـواق ، كمـا حـارب تجارة الرقيق وقضى قدر الإمكان ، على الاتجار بالجنس البشري ، وشجع كل التشجيع على القدوة الحسنة في إطلاق الرقيق ، وإعطائهم حريتهم وعتقهم .

لكن مع ذلك ، وجدت بعض المشاكل الخاصة بالسماح للتجار مـن بـلاد العـدو بالمجيء لأسواق الخلافة ، فهذا موقف صعب جداً ، وأصـبح مـسموحاً للرقيـق بحيـازة الممتلكات الخاصة والعمل لحسابهم الخاص لبعض الوقت ، حتى يكون بوسـعهم دفـع الجزية وتحرير أنفسهم .

أما الضرائب فقد خففت عن كاهل السكان ، لكن وجدت ضريبة الزكـاة ، وهـي إجبارية تدفع لبيت المال ، ناهيك عن الجزية والفدية ، وكانت زوجات العامة في معظم أنحاء الخلافة يشاركن في التجارة وإنتاج السلع لغرض البيع ، وكذلك في الزراعة .

الناحية الثقافية

ومن الناحية الثقافية نجد تساهل الـشيخ بعـد عـام **1810** في التـسامح مـع بعـض الممارسات مثل الموسيقى والاستماع لها بالرغم من أنه كان يراها ذنبا ، وهكذا نجحت دعوة الشيخ وحركته الجهادية [1] في تنقية المجتمع وتنقية الـدين الإسـلامي مـن جميـع العـادات الوثنيـة في مختلـف نـواحي الحيـاة الـسياسية والاجتماعيـة والثقافيـة والدينيـة والاقتصادية .

دور الإمام المهدي في السودان

وبالانتقال إلى دور الإمام المهدي في السودان ، فإن هذه الدراسة لا تكون مستوفاة

(1) للاطلاع على الآثار بالتفصيل ينظـر م لاسـت مرجـع سـابق ص 631 - 652 وحـسن محمـود أحمـد ، ص 268 - 270 ، وشوقي الجمل وعبد الله إبراهيم . ص 143 ـ 145 .

دونما التركيز على شخصيته ونشأته الفكرية ، ثم الأسباب المؤدية لظهوره في البلاد، وهذا ما سيتم توضيحه بإيجاز الآن .

فالإمام المهدي هو محمد أحمد بن عبد الله بن فحل بن عبد المولى بن عبد الله ابن محمد بن حاج شريف ، المنتهى نسبه حسب قوله ، إلى الحسن سبط بن الإمام على ابن أبي طالب . وبالتالي فهو يوصل نسبه إلى آل بيت الرسول ﷺ [1] ، فقد ولد في جزيرة ضرار (لبب) من نواحي دنقلة ـ لذلك عرف في صباه بمحمد أحمد الدنقلاوي ـ في الأسبوع الثاني [2] من شهر أغسطس 1843، وقيل: 1844 [3] . حيث كان والده نجاراً ماهراً في صناعة بناء المراكب ، ونظرا لضيق العيش في دنقلة انتقل منها إلى الخرطوم ، ثم كررى مشتغلاً بحرفته ، إلى أن مات ودفن في كررى .

ويذكر أن محمد أحمد قد تميز عن أخوته بالذكاء أثناء مشاركته عملهم في صناعة المراكب ، إلا أن وجوده بالخرطوم قد جذب انتباهه نحو الدراسة في الخلاوي التي تكثر في المنطقة ، وكذلك رواح وغدو مجموعات من الأطفال منها وإليها ، يحملون ألواحهم ويرددون الآيات القرآنية والحروف الأبجدية ، الأمر الذي جعله يتبعهم إلى خلوة الفكي هاشم في كررى التي أصر على الدراسة فيها ، رغم عدم رضا أخوته ، لرغبتهم في العودة معهم للعمل في صناعة المراكب .

ثم انتقل للخرطوم للدراسة على يد الشيخ شرف الدين عبد الصادق ، ويذكر محمد سعيد القدال في كتابه (الإمام المهدي) أن التنقل بين الخلاوي كان من

---

(1) حيث ذكر محمد أحمد اسمه : محمد(المهدي) أحمد بن عبد الله بن فحل بن عبد المولى بن عبد الله بن محمد بن حاج شريف بن علي بن أحمد بن علي بن حسب النبي بن صبر بن نصر بن عبد الكريم بن حسين بن عون الله بن نجم الدين بن عثمان بن موسى بن أبي العباس بن يونس بن عثمان بن يعقوب بن عبد القادر بن الحسن العسكري ابن علون بن عبد الباقي بن صخرة بن يعقوب بن الحسن السبط بن الإمام علي بن أبي طالب ، ينظر نعوم شقير ، تاريخ السودان ، دار الجيل ، بيروت ، 1881 ، ص 321 - 322

(2) انظر كلا: من سبنسرتر منجهام ، الإسلام في السودان ، ترجمة فؤاد محمد عكود ، المجلس الأعلى للثقافة ومحمد سعيد القدال ، الإمام المهدي ، محمد أحمد بن عبد الله 1844- 1885 2001 ، ص99 . وكذلك هنرى وسيلنغ ، تقسيم أفريقيا 1880- 1914 (أحداث مؤتمر برلين وتوابعه السياسية) ، ترجمة ريما إسماعيل ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان ، مصراتة ، 2001 ، ص 106 - 107 . كذلك انظر رأفت الشيخ ، تاريخ العرب الحديث ، دار الثقافة ، القاهرة ، 1992 ، ص269 .

(3) القدال ، ص 33- 35 .

الممارسات المألوفة لدى السودانيين ، لأنه ما إن يسمعوا عن شيخ خلوة ، وعن علو منزلته حتى يرتادوا مكانه ، وبالتالي كان تنقل محمد أحمد لأجل طلب المزيد من العلم

وهذا ما يؤكده ذهابه إلى قرية كترانج الواقعة على بعد **36** ميلاً جنوب الخرطوم على الضفة الشرقية للنيل الأزرق ، لزيادة تكثيف نشاطه الفكرى الديني الصوفي ، وذلك عام **1861** (وعمره سبعة عشر عاماً) ، وذلك لما تمثله كترانج من منارة علمية في السودان ، وكأنها جامعة ؛ لكثرة المؤلفات الدينية ، ولما يسودها من جو علمي ممتاز وحضارة فكرية راقية ، ثم لما تلقاه من دعم من الحكم التركي المصري ، .

ناهيك عن ما كان متوفراً بها من مساكن وأكل لطلاب العلم من مختلف أرجاء البلاد ، الأمر الذي وفر على محمد أحمد مهمة البحث عن قوته ، فانقطع للدرس [1] ، حيث تخرج فيها رجال عرفوا في تاريخ السودان بالصلاح ، مثل الشيخ البشير والد أحمد الطيب ، مؤسس الطريقة الصوفية السمانية في السودان . [2]

وأمام ما يتمتع به الأزهر الشريف من شهرة دينية وعلمية ، كان المقصد لجميع المقتدرين من طلاب العلم الذين أتموا علمهم في قرية مسجد كترانج ، فالصلة بين الاثنين قوية ، والرغبة في تحصيل الإجازة العالية من الأزهر أقوى ، وهذا ما تطلع إليه الفتى محمد أحمد الذي خرج من كترانج ، حوالي 1863 – 1864 في مطلع العقد الثالث من عمره ، نحو الخرطوم إلى بربر ، في طريقه لمصر ، والتقى فيها الشيخ السماني ، (ود فزع) تلميذ الشيخ محمد الضكير الذي سماه لاحقاً بالمهدي ، بمحمد الخير الذي هو شيخ خلاوي الغبش ، الواقعة قبالة بربر بالشاطئ الغربي من النيل ، ويبدو أنه نجح في صرفه عن فكرة السفر إلى مصر ، بحجة أن شيخه محمد الخير له

---

(1) هذا الوصف مأخوذ من كتاب (قرية كترانج وأثرها العلمي في السودان) نقلاً عن القدال ، ص 34 ـ 35 .

(2) الطريقة السمانية هي فرع من الطريقة الخلوتية التي أسسها عمر الخلوتي(متوفى عام 97 ـ 1398) وقد أسسها محمد بن عبد الكريم السماني(1718 ـ 1775) وشيخها الحالي في المدينة المنورة هو السيد محمد حسن السماني الذي قام بثلاث زيارات للسودان وقد أدخلها للسودان الشيخ أحمد الطيب بن بشير(متوفى عام 1823) ، حيث يذكر أن هذه الطريقة تأثرت بالحركة الرجعية الجديدة في الإسلام التي انتشرت بنشاط وكان لهذا الشيخ حفيد هو محمد شريف بن نور الدايم(حفيد الشيخ الطيب كان له تلميذ مشهور هو محمد أحمد الدنقلاوي ، حيث وجدت السمانية بقوة على طول ضفتي النيل الأبيض وكانت الطريقة السمانية معادية للأوروبيين . للمزيد ينظر ، سبنسرتر منجهام ، الإسلام في السودان ، ص 218 ـ 220 .

إلمام تام بعلوم الفقه وتدريسها ، وهنا اتفق مع من سبق في اعتبار هذا السبب ليس كافياً لتركه السفر إلى مصر ، فإما أن تكون الأسباب لحداثة سن الفتى (**20** سنة) وقلة وضعف معلوماته عن الأزهر ، أو لضعف إمكانياته المالية ، أو لأنه وجد فعلاً في بربر وفي جو العيش بالتحديد ، ما يجمع بين العلم والتصوف ، ثم إن بربر مدينة تجارية كثيرة الاتصال بمصر ، وبها فئة تجارية كبيرة تشكل بؤرة للصراع الاجتماعي ، ومن ثم كانت تشكل تربة صالحة لنشوء تيارات صوفية زاهدة تعبر عن رفض الاستغلال ، وهذا ما أرجحه خصوصاً أن معلوماته كانت كبيرة عن الأزهر ، أما إمكانياته المادية فكان بإمكانه أن يشتغل ويدرس وأن يكون زاهداً ومتقشفاً ، وبالتالي الرحلة لن تكلفه الكثير .

وبقي الشاب في بربر ثلاث سنوات كانت من المعالم البارزة في حياته وصفاته الشخصية من الذكاء والحماسة في مجال التعليم ، حيث أكمل مختصر خليل ، وعلوم التجويد والفقه والنحو ، وفي رفضه وعناده للطعام الآتي من إحسانات الحكومة ، في عهد الخديوي اسماعيل ، التي حصلت عليها من الضرائب المجمعة قسراً من الأهالي، فمن الحوادث في هذا الشأن أنه رفض الطعام ولم يأكل إلا بعد أن ذهب إليه أستاذه محمد الخير الذي قدم له طعاماً من إنتاج سواقيه ، وأكد له أنه طعام لاصله له بالحكومة ، ومن هنا ظهرت بوضوح أفق حياته الصوفية مسلكاً وفكراً في رفض كل أمر يخالف ما يراه صواباً ، وهذه المواقف الفردية كانت تمثل ممارسات شائعة ومتعارفاً عليها ، لكن رفضها يتطلب قدراً من الشجاعة والوضوح والعناد ، بحيث يأتي أستاذه بنفسه إليه ليؤكد له أن الطعام ليس من الحكومة ، وإنما من إنتاج سواقيه [1] . وهكذا كان مع التصوف أكثر انسجاماً إذ أخذ يميل إلى العزلة .

ومن هنا نلمس نهاية المرحلة الاكاديمية العلمية في حياته الفكرية ، وبداية مرحلة التصوف بشخصه التي يسميها البعض بالشخصية المتطرفة Extremist ، وذلك بسيره نحو أهداف واضحة يعمل للوصول إليها وتحقيقها [2] .

وهذا ما يبينه التطلع إلى شيخ ، أقوى مركزاً من محمد الخير ، وهو الشيخ محمد شريف نور الدايم ، أشهر زعيم صوفي بين بربر والخرطوم ، وهو حفيد الشيخ أحمد

(1) القدال ، ص 36 - 39 ، ونعوم شقير ، ص 322 .
(2) القدال ، ص 38 ـ 39 .

الطيب البشير ، مؤسس الطريقة السمانية ، المشهور برجل أم مرح ، حيث انتقل إلى أم مرح حوالي عام 1865 يمكث فيها سبع سنوات متتالية (من 1865 ـ 1871) ، بعدما سأله الدخول في مصاف تلاميذه ، فوافقه على طلبه ليقيم عنده منقطعاً إلى الصلاة والعبادة والتقشف والزهد ، واحترام شيخه والتوغل في مؤلفاته .

كانت هذه الكتب الصوفية تحمل أمراً جديداً لم يألفه من قبل ، فهي الصوفية الخاصة بمجاهدة النفس وتطهيرها ، والارتقاء بها في سلم النقاء ، بتحمل درجات كبيرة من العذاب ، فهي مقام يستطيع فيه المرء بالمثابرة أن يصل لدرجات كبيرة من الانجاز والكمال ، فكان يقوم الليل متعبداً منفرداً ، مثلما رآه شيخه محمد شريف بعد تفقده ليلاً فقال : (الفتى الدنقلاوي يجلس منفرداً يتعبد) وقال : (كلما وقف للصلاة يبكي حتى يبلل الأرض بدموعه) [1] وفي قصيدة مشهورة للشيخ محمد شريف نور الدايم يقول فيها عن محمد أحمد الدنقلاوي .

كم صام كم صلى وكم قام كم تلا من الله لازالت مدامعه تجري
وكم بوضوء الليل كبـــر للضحى وكم ختم القرآن في سنة الوتر

ناهيك عن احترامه الشديد لهذا الشيخ ، وخدمته له بذل وانكسار ، بحيث إنه إذا جلس شيخه أمامه نكس رأسه ولم يرفع طرفه إليه ، إلا إذا كلمه ، وهو كريم يعطي العطايا ، وهذا ما أكده الشيخ بقوله .

فقـــام على نهج الهداية مخلصاً وقد لازم الأذكار في السر والجهر
أقام لدينا خادمـا كـل خدمة تعزٌ على أهل التواضع في السير
كطحن وعوس واحتطاب وغيره ويعطي عطا من لا يخاف الفقر

لتكون النتيجة أنه مندوب للشيخ محمد شريف نور الدايم والمتحدث باسمه، والرافع لراية الطريقة السمانية ، والناشر لتعاليمها ، متنقلاً في القرى والمدن السودانية ، فذهب للخرطوم ثم سنار الى ما جاورها ، إلى أرض الجزيرة وأواسط السودان ، ولعل أهمية هذا الدرب الجديد من التصوف تكمن في مساعدته في التعرف على قدراته في الاقناع والمخاطبة ، وبناء سمعة حسنة خاصة به خلال تجواله ، ناهيك عن تعرفه على أحوال الناس والوقوف عند معاناتهم في ظل الحكم التركي المصري ، وهذا الحال

(1) القدال ، ص 40 ـ 41 ، ونعوم شقير ، ص 322 .

بالتأكيد سيكون مؤشراً لدخوله في صراع بين المثالية الصوفية ، وواقع الحياة الذي يريد تغيراً فعلياً ، لكنه فضل الأمر لصالح التصوف وتفرع له [1] .

وبعد ما تزوج من ابنة عمه فاطمة أحمد شرفي ، انتقل بعدها إلى جزيرة أبا على النيل الأبيض عام 1871 ، حيث بنى خلوة للتدريس بعيداً عن صخب المدينة ومسجداً للصلاة ، فاجتمع الناس من سكان الجزيرة ودخلوا ليكونوا من تلامذته ، كما واصل علاقته الطيبة بالزيارة والعطايا لأستاذه الذي أقنعه بالرحيل من أم مرح إلى العراديب ، بين أبا والكوة على النيل الأبيض ، إلا أن هذا الصفاء لم يدم طويلاً فقد دب الخلاف بينهما ، الأمر الذي جعل محمد أحمد يترك الشيخ شريف ، ويلجأ إلى الشيخ القرشي ود الزين الذي أخذ الطريقة السمانية رأساً من مؤسسها الشيخ الطبيب ، الذي رحب به بعد أن جدد عليه عهده ومشيخته .

هنا كتب محمد شريف إلى الشيخ القرشي يعاتبه على قبول محمد أحمد فكتب إليه : « إني رأيت محمد أحمد مستحقا ومنع المستحق ظلم » وقد علل محمد أحمد انفصاله عن شيخه محمد شريف بأنه قد خالف الشريعة والسنة ، أما الشيخ فقد ردد بأن : « الدنقلاوي « أي محمد أحمد » شيطان مجلد بجلد إنسان » ومعلوم أن أسباب الخلاف المذكورة من كليهما عديدة ، قد لا يتسع بنا المجال هنا لذكرها وتحليلها [2] .

وهكذا كانت هذه المرحلة الهامة في حياة محمد أحمد في كنف الشيخ القرشي من أعوام 1878 إلى 1880 ، تشكل فترة حرجة في حياته ، لأنها من جانب امتداد مهم لحياته الصوفية ، ومن جانب آخر مرحلة انتقالية مهدت لقيامه بأمر المهدية ، وبالتالي فقد شهدت الانتقال الحاسم من الصوفية إلى المهدية ، من شخصية محمد أحمد الدنقلاوي الصوفي إلى محمد المهدي المنتظر .

حيث وجد عنده مناخاً ، أكثر قرباً للنفس وعرفت عنه صفات الورع والتقوى

---

(1) على الرغم من الشيخ محمد شريف نور الدايم قد قال قصديته بعد القضاء على المهدية في السودان ، إلا أن ذلك لم يمنعه من وصف حال محمد أحمد قبلها وعلاقته به بكل صدق وأمانة فأبيات القصيدة هجاء للمهدي والمهدية خصوصاً بيته :

فقال أنا المهدي فقلت له استقم فهذا مقام في الطريق لمن يدري

ينظر كل من نعوم شقير ، ص 324 - 325 والقدال ، ص 40 ـ 41 .

(2) المصادر والصفحات نفسها.

والصلاح ، مع رجل استقى عرف الطريقة السمانية مـن مـصادرها الأولى ، ناهيـك عـن زواجه « الثالث» من بنت شيخه ، وفي هذه المصاهرة وجد ما يقـوي مركـزه ومـستقبله في المهدية ، وخصوصاً بعد أن واصل رحلاته تحت مظلة الـشيخ القرشـي نحـو مدينـة كردفان وعاصمتها "الأبيض" ، للتعـرف علـى معاناتهـا تحـت الحكـم التركـي المـصري وقسوة الضرائب التي أرهقت أهلها ، وسوء تصرف الحكام الأقليمـيين ونـزوعهم للثـراء على حساب الأهالي ، وخصوصاً الرعاة منهم ، ناهيك عن الصراع بين الجلابـة « الـذين وفدوا من منطقة النيل إليهـا » وتحـالف قـسم مـنهم مـع الحكـم الأجـنبي ، وخـصوصاً الجعليين ، كل هذا جعل النـاس متـذمرين سـاخطين علـى الأوضـاع الـسائدة ، ولـيس أمامهم من حل إلا الأخذ بالفكرة القريبة إلى وجدانهم ، وهـي فكـرة المهـدي المنتظـر، فيقال من سخط الناس في الأبيض إن جماعة منهم صاحت بالقول : « أليس لنا مهدي؟ » « هذا أوان نزول المهدي » . [1]

وإن الصبية في مدينة الأبيض قد تلقفوا الفكرة ، فانقـسموا قـسمين في مبارياتهم: فريـق سمـي فريـق المهـدي ، والآخـر فريـق الـترك ، وبعـد منافـسة حـادة فـاز فريـق المهدي . ولعل تركيز محمد أحمد على الأبيض لأنهـا مهمـة اسـتراتيجيا ، وذات مركـز سياسي وتجاري واجتماعي ، ناهيك عـن كونهـا مكانـاً خـصباً لنـشر طريقتـه ، إضـافة لبعدها عن مركز السلطة في الخرطوم ، وبالتالي كانت المنطقة من أكثر المناطق لتقبـل فكرة المهدي المنتظر ، وكان آنذاك في منتصف العقد الرابع من عمره أي 35 سـنة (مـن عام 1844 إلى 1879) ، ومع هذا فالروايات متعددة حول من أوحى اليه بفكرة المهـدي المنتظر ، منها شيخه القرشى عندما قال: (ديته بنتي وفرسـي وأنـا موعـود أن فرسـي ده يركبه المهدي وشَيخّتُه وأدبته الإجازة» .

وعلى الرغم من اختلاف المؤرخين [2] حول مدلول هـذه العبـارة ، إلا أنـه بوفـاة الشيخ القرشي قد أصبح محمد أحمد خليفته فعلاً ، أولاً في إعلان أنه المهدي المنتظر ، وثانيهما لقاؤه بعبد الله بن محمد التعايشي (الذي أصبح خليفته في الدولة المهدية) الـذي أُغمي عليه ، لأنه رأى في صورة محمد أحمد المهـدي المنتظـر ، وثالثهمـا بعـد اعتلائـه كرسـي المـشيخة أخـذ النـاس يتكـاثرون عليـه ، حيـث منحـوه يقينـاً علـى يقـين

(1) للاطلاع أكثر ينظر القدال ، ص 42 ـ 43 ونعوم شقير ، ص 323 ـ 324 .

(2) في الحقيقة أن أسباب الخلاف كثيرة للاطلاع بالتفصيل ينظر نعوم شقير ، ص324 ـ 326 والقدال ، ص 45 ـ 46 .

كصوفي متفرد عن غيره .

وهنا تبلورت لديه فكرة المهدي المنتظر التي سعى إليها بجده وعمله الذي ميزه عن غيره من المتصوفة ، وبالتالي منحته القدرة ليصبح المعبر عن طموح الجموع ومساعدتهم للخلاص مما فيه ، وخصوصاً أن تجربته الصوفية كان لها ثقل إيجابي فظل متمسكاً بفكره الصوفي ، وآرائه الأيديولوجية ، وأعطته مكانة بعدما تأهل في خلاويها ، ودربت شخصيته وقدرته على المخاطبة والمثابرة والخبرة بأوضاع البلاد وأمور أهلها ، قرية قرية ومدينة مدينة ، ليكون له الدافع لإظهار الحل المستوجب من قبله للإصلاح الفوري لأمور الناس ، والجهاد ضد الحكم التركي المصري والتغلغل البريطاني .

لقد شكلت الأوضاع السودانية أسباباً سياسية واقتصادية واجتماعية لنجاح حركة المهدي ، منها سلبيات الحكم الأجنبي التركي المصري أعوام 1821 – 1881 ، وما صاحبها من تغلغل بريطاني في السودان ، وكان نموذجاً له صمويل بيكر أعوام (1868– 1873) مدير لمديرية خط الاستواء ، وتشارلز غوردون باشا أعوام (1874 – 1876) ثم (1877 – 1879) كحكمدار للسودان ، والضرائب الباهظة المفروضة على السودان ، والتحيز لقبائل معينة ضد الأخرى ، والاتجاه بالسودان بواسطة الحركة التجديدية لجعلها دولة علمانية كأمر مرفوض من قبل السكان ، ناهيك عن إلغاء تجارة الرقيق كمبرر لاستعمار البلاد .

إذاً فقد أدت كل تلك الأوضاع السيئة في السودان إلى أن تأخذ فكرة المهدي المنتظر بعداً شعبياً بانتقالها إلى التراث الصوفي ، الذي أخذ يتبلور ليعبر عن واقع الحياة السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، للخروج من هذا الواقع في تماسك ، يتخطى كل الروابط المحددة للقبيلة الإقليمية العرقية (اللغوية) ، وخصوصاً رواج هذه الفكرة في غرب السودان في كردفان والأبيض ، ناهيك عن مساهمة الطريقة المرغنية في شخص السيد محمد عثمان الميرغي ، بالإشارة الكثيرة للمهدي المنتظر ، وصفاته ومكان ظهوره .

كانت أولى خطواته لإعلان أنه المهدي المنتظر ، هي اتخاذه السرية في دعوته ، واتصالاته بمن حوله من الأصحاب والمردين ، حيث أسر لهم برؤيته للرسول ﷺ في المنام ، وبأنه قد أبلغه بأنه هو المهدي المنتظر ، بعدما كان يسمع سابقاً هواتف إلهية

تناديه (يا مهدي الله) ومرحبا بالمهدي [1]، حيث بين لهم الهدف من دعوته والإعلام بها في قوله : (. . . فالأمر المطلوب كشفه أن دُعائي الخلق على تقويم السنة والهجرة بالدين مما عليه الطباع الزمنية . أمر من سيد الوجود (محمد ﷺ) والإعلام بأنى المهدي المنتظر من سيد الوجود ﷺ مراراً عديدة مع الهواتف الإلهية وعلامات أخبر بها سيد الوجود ﷺ » [2].

هذا أول ما أخبر به أصحابه في جزيرة أبا في سرية تامة ، وخصوصاً عبد الله التعايشي (أحد زعماء البقارة ، ومن خلال رسائله المنشورة في أوائل دعوته نلتمس أن هذا الإخبار من الرسول ﷺ له وقال إنه بحضرة : « الخلفاء الأربعة والأقطاب والخضر عليه السلام، وأيدني الله تعالى بالملائكة المقربين وبالأولياء الأحياء والميتين من لدن أدم إلى زماننا . . . وأعطاني سيف النصر من حضرته ﷺ وأُعلمت أنه لا ينصر عليّ معه أحد ولو كان الثقلين الإنس والجن » [3].

فمن خلال ذلك نفهم أن كرامة المهدي ، أو معجزاته الانتصار في حربه ضد الحكم التركي المصري بمساعدة النبي ﷺ والملائكة ، هذا ناهيك عن كرمات أخرى متصلة بذات الموضوع ، وقد بين محمد أحمد المهدي صفاته بالقول : « ثم أخبرني سيد الوجود ﷺ بأن الله جعل لك على المهدي علامة ، وهي الخال على خدي الأيمن ، وكذلك جعل لي علامة أخرى تخرج من نور ، ويكون معي في حالة الحرب يحملها عزرائيل عليه السلام فيثبت الله بها أصحابي وينزل الرعب في قلوب أعدائي ، فلا يلقاني أحد بعداوة إلا أخذله الله ، ثم قال لي ﷺ : إنك مخلوق من نور عنان قلبي » [4] كما يذكر أن الرسول ﷺ قد حدثه بشأن عاقبة المصدقين والمكذبين به بالقول : « فمن له سعادة صدق بأني المهدي المنتظر ... وقد أخبرني سيد الوجود ﷺ بأن من شك في مهديتك فقد كفر بالله ورسوله (كررها ثلاث مرات) وجميع ما أخبرتكم به في خلافتي على المهدية » [5].

---

(1) القدال ، ص 94- 54 .

(2) انظر هذه الروايات بالتفصيل عند شقير ، ص327 والقدال ، ص55 - 57 .

(3) القدال ، ص 20 - 65 ، م . لا ست ، دولة الخلافة في السوكوتو وبلاد البرنو ، تاريخ أفريقيا العام ، المجلد6 ، ص633 .

(4) نعوم شقير ، ص 335 - 336 .

(5) المصدر نفسه ، ص 329 - 334 .

بعدما نشر دعوته سراً في أبا ، وأخذ المواثيق من أصحابه المقربين له ، انتقل إلى مدينة الأبيض بكردفان ؛ ليبث الدعوة الجديدة سراً ، ثم إلى تقلي بجبال النوبة ، فكل هذه المناطق لها أهميتها الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية ، ناهيك عن بعدها عن الحكم المركزي والاستقلال النسبي بها ، ليعود إلى (أبا) ليشهر دعوته في شهر رجب عام ، 1880 ، وذلك بإرساله العديد من المنشورات لمختلف الجهات ، تبدأ بعد البسملة والصلاة على النبي ﷺ « فمن العبد المفتقر إلى الله محمد المهدي بن عبد الله إلى أحبابه في الله المؤمنين بالله وبكتابه » [1] ، وقد تضمنت هذه المنشورات أقواله التي أشرنا إليها سابقاً مضيفاً أن الرسول ﷺ قد أمره بإشهار دعوته بالهجرة إلى ماسة بجبل قدير ، وأن يكاتب كل الأمراء ومشايخ الدين : « ولما حصل لي يا أحبابي من الله ورسوله أمر الخلافة الكبرى أمرني سيد الوجود ﷺ بالهجرة إلى ماسة بجبل قدير ، وأمرني أن أكاتب بها جميع المكلفين أمراً عاماً ، فكاتبنا بذلك الأمراء ومشايخ الدين ، وأنكر الأشقياء وصدق الصديقون » . [2]

ومن هذه الكتب كتابه إلى رؤوف باشا ، حكمدار السودان في الخرطوم ، حيث تضمنت كتبه آيات قرآنية ، تأمر المؤمنين بإجابة الدعاء والهجرة المذكورة بالدين واجبة كتاباً وسنة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[3] ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾[4] وقول الرسول ﷺ (من فر بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً في الأرض استوجب الجنة) ، وبذلك أمر كل محبي دعوته بالهجرة إليه ، ويختم كتابه بالقول بأنه من نسل رسول الله ﷺ : « فليكن في معلومكم إني من نسل رسول الله ﷺ فأبى حسني من جهة أبيه وأمه وأمي كذلك من جهة أمها وأبوها عباسي ، والعلم لله أن لي نسبة إلى الحسين » [5] . كل هذا الترغيب في إجابة دعوته والترهيب من الإعراض عنها .

ومن رسائله الأخرى نلمس تأكيده على أنه المهدي بإعلام الشيخ الطيب (شيخ الطريقة السمانية له بذلك ، وكذلك الشيخ القرشي : « ثم يأتي الشيخ القرشي فيقرأ علي

(1) المصدر نفسه وكذلك سبنسر ترمنجهام ، الإسلام في السودان ، ص151 .
(2) المصدر نفسه .
(3) الأنفال: من الآية24 .
(4) لقمان: من الآية15 .
(5) المصدر نفسه .

السلام بالمهدية ويتكلم بكلام مفهوم منه أنه يقول كن ذاكراً ولمن معك سائراً ... فيقول أن النبي ﷺ أعلمني قبل مماتي أن شيخك هو المهدي بذاته ، وكان قد أعلمني الشيخ الطيب قبل مماتي وقال: إنك تدرك المهدي وتلاقيه وهو شيخك يعينه ، ثم يأتي النبي ﷺ ومعه الشيخ عبد القادر الجيلاني . . . ويأمر عزرائيل عليه السلام ، ويقول من هذه الليلة اصحب المهدي لا تفارقه » [1] وكذلك يأمر الخضر عليه السلام وإن هذه الليلة حسب محمد المهدي هي غرة شعبان 1298 الموافق 29 يونيو الصيف 1881 .

وقد كان يختم كتبه بـ "لا إله إلا الله" ثم "محمد رسول الله" ثم "محمد المهدي بن عبد الله" . ثم حذا حذو الرسول في تسمية أصحابه بالأنصار ، بدل الدرويش حسب الحكومة ، الذين بايعوه على الولاء له عن طريق : « الزهد في الدنيا وهجرها ، وقبول ما قسم الله ، والرغبة فيما عند الله وفي الدار الآخرة وعدم الفرار من الجهاد » [2] . وما إن نجح في إشهار دعوته وتجميع الجموع حوله ، حتى قرر بدء حركته العسكرية ، أي التحول للثورة وذلك بمكاتبته لحكمدار الخرطوم « رؤوف باشا » بأنه المهدي المنتظر وبعلاماته وبطلبه منه الاتباع والتسليم ، فكان رد الأخير باستيضاح رأى العلماء ، ثم أرسل وفداً برئاسة أحد معاونيه ، وهو محمد بك أبو السعود مع عدد من أقارب المهدي ، وخمسةً وعشرين جندياً لحراسته ، وأمرهم بالسير إلى جزيرة أبا لاستيضاح الأمر من محمد المهدي ، واصطحابه للخرطوم لمناقشة العلماء في دعوته ، وذلك يوم الأحد 11 رمضان سنة **1298** هـ 7 أغسطس سنة 1881 ، وبعد مقابلته رأى أبو السعود إصرار محمد المهدي وأنصاره على نصرة دعواهم ، ورفض الحضور معه للخرطوم ، فعاد أبو السعود إلى الخرطوم ليذكر ما حدث بالتفصيل لرؤوف باشا .[3]

بقي أمام الحكومة خيار المواجهة العسكرية ، فجهز رؤوف باشا عدداً من العساكر في حملة عسكرية مصغرة ، للسير إلى أبا للقبض على محمد وأنصاره ، وذلك بعدما وصلوا يوم الجمعة 16 رمضان 1298هـ ـ 12 أغسطس 1881 ليشتبكوا مع بعضهم البعض في معركة عرفت، بواقعة « أبا » التي انتصر فيها محمد أحمد وأنصاره ،

---

(1) المصدر نفسه .

(2) المصدر نفسه .

(3) ح . أ . إبراهيم ، المبادرات والمقاومة الأفريقية في شمال شرق أفريقيا ، تاريخ أفريقيا العام ، مجلد8 ، ص91 ـ 91 ، ونعوم شقير ، ص349 ، وسبنسر ترمنجهام ، ص152 .

وهزم فيها جيش الحكومة .

وبعد هذا الانتصار أمر محمد المهدي أنصاره بضرورة الهجرة التي أمره بها سيد الوجود محمد ﷺ إلى ماسة بجبل قدير [1]، ويرى المؤرخون في هذا محاكاة لمثال الرسول في الهجرة ، وبذلك هاجر من منطقة مفتوحة ، تعوزها وسائل الدفاع وهي جزيرة ، وعلى مقربة من القوات الحكومية ، إلى منطقة نائية محصنة من الناحية الاستراتجية ، وما يؤكد أهمية انتصاره في هذه المعركة ، ثم الهجرة إلى جبل قدير هو انتصاراته المتتالية على الحكومة في واقعة المختار 24 أكتوبر سنة 1881 ، ثم في واقعة (راشد بك في 9 ديسمبر 1881) ، وليلتف حوله أبناء غرب السودان من سنار وكردفان ودارفور ، ليكونوا القادة الإداريين والعسكريين ، وتأخذ منطقتهم أهمية الأقاليم النهرية .

وما إن عزلت الحكومة التركية المصرية رؤوف باشا عن حكمدارية السودان، وعينت محله عبد القادر باشا حلمي ، حتى قام جيجلر Giagler النمساوي بتصريف أمور الحكمدارية ، وبإعداد حملة عسكرية يقودها يوسف باشا الشلالي ، مدير سنار في 29 مايو 1882 ، انتصر فيها محمد المهدي وأنصاره ، وازدادت غنائمهم وسمعتهم ، وليبدأ محمد المهدي وأنصاره بدور الهجوم والاستيلاء على المدن السودانية ، بعدما كانت معاركه السابقة ممثلة في الدفاع عن أنفسهم ، ودعوته ضد الحملات العسكرية الحكومية الموجهة ضده .

توجه في مطلع عام 1883 نحو الأبيض وبارا ، حيث استسلمت مدينة بارا في 6 يناير 1883 ، وفي 15 يناير استسلمت مدينة الأبيض لتقود نتيجة هامة ، وهي السيطرة على كردفان ، وبالتالي يصبح الطريق أمامه مفتوحاً شمالاً للخرطوم .

وأمام تلك الانتصارات قررت الحكومة في مصر إرسال مدد حربي للسودان، للقضاء على الثورة المهدية ، وكان هذا المدد مكوناً من الجند والعتاد ، وبرئاسة رئيس الأركان الحربي الضابط البريطاني هيكس باشا ، وذلك في عهد علاء الدين باشا حكمدار السودان ، حيث جمع عدداً إضافياً من الجنود ، وصل إلى نحو 5600 مقاتل ، يزحفون نحو المرابيع جنوبي (أبا) لقتال محمد المهدي وأنصاره ، حيث اجتمع الجيشان في

(1) يذكر محمد سعيد القدال في كتابه الإمام المهدي ، ص120 ، أن المهدي قد استعمل تعبير جبل ماسة وهو غير موجود بالسودان وإنما في المغرب العربي ، ذلك لأن من صفا ت المهدي المعروفة ظهوره على ذلك الجبل .

فجر 29 ابريل 1883 ، وأمام الخطة العسكرية الاستراتيجية التي وضعها هكس باشا ، هزم جيش المهدي بعد قتل 12 من كبارهم ، وليعود هكس باشا للخرطوم لإعداد المعركة ، التي جمعوا لها كل ما في طاقتهم من سلاح وجنود ، ليلتقي الجيشان مرة أخرى في غابة شيكان ، على مقربة من مدينة الأبيض ، في الخامس من نوفمبر سنة 1883 ، لتنتهي المعركة بإبادة جيش هكس باشا وقتله ، والقضاء على نفوذ الحكومة التركية المصرية في المنطقة ، وازدياد نفوذ وتأثير محمد المهدي ، وتقاطر الوفود عليه من داخل وخارج السودان ، وكذلك إرساء حكمه في أقاليم كردفان ودارفور وبحر الغزال ، ناهيك عن انتصارات جيش المهدي برعاية عثمان دقنة في شرق السودان، والسيطرة على مساحات واسعة منه ، باستثناء ميناء سواكن .

ولتكن المعركة الأخرى نحو الخرطوم ، وهذا ما أدركته الحكومة التي عملت على تحصينها ، وانتشال عساكرها من فاشودة والكوت وسات والدويم ، وهنا يرجح الضعف الحكومي بسبب انهاك وانشغال الحكومة التركية المصرية ، في القضاء على ثورة أحمد عرابي في مصر ، ناهيك عن أن السياسة البريطانية نحو السودان بعد معركة شيكان ، قد أقرت تغييراً جوهرياً ، رأته يحفظ مصالحها الأمبراطورية ، وذلك بالانسحاب التركي المصري من السودان ، أي أنها أمرت الحكومة المصرية بالتخلي عن السودان ، ولتنفيذ هذا أوفدت الجنرال غوردون باشا الذي كان في قرارة نفسه غير موافق على هذا الإنسحاب ، أو بالأحرى تحويله إلى احتلال بريطاني فعلي للسودان، هنا بدأ تقدم جيش المهدي للخرطوم حيث استسلمت أم درمان له في 5 يناير 1885 .

ناهيك عن أنه لم يعط محمد المهدي الأهمية التي يستحقها ، إذ أنه نشر منشوراً في الخرطوم ، يؤكد فصل السودان عن مصر . وأنه جاء كحاكم مفوض عليه ، وأنه جعل محمد أحمد سلطاناً على كردفان ، وألغى الأوامر في منع الرقيق ، وغض النظر عن الضرائب المتأخرة حتى عام 1883 ، لكن كل هذا عديم الجدوى لأن محمد المهدي لا يحتاج لمثل هذا الاعتراف ، لأنه يرى أنه سلطان السودان وليس كردفان التي هو سلطانها بالفعل ، ويبدأ في حصار الخرطوم ، ففي بداية هذا الحصار أرسلت الحكومة البريطانية حملة من خمسة آلاف جندي بقيادة الجنرال كتشنر ، والجنرال رندل لفك الحصار على الخرطوم ، ولكن ما الفائدة ؟ فقد تمكن جيش المهدي من اقتحام ومهاجمة الخرطوم واحتلالها وقتل غردون باشا يوم الاثنين 26 **يناير** 1885؛ لينتهي

بذلك الحكم التركي المصري في السودان ، وكذلك التغلغل البريطاني القوي ، للبدء في حكمه بعدما فُصل عن مصر ، وفي يوم الجمعة 30 يناير 1885 دخل محمد المهدي الخرطوم ، بعد بقائه في أبي سعد جنوب أم درمان ، منتصراً ومتجهاً للمسجد لأداء صلاة الجمعة فيها ، وهكذا أسفرت الثورة المهدية التي انفجرت يوم الجمعة 12 أغسطس 1881 (في واقعة أبا) بالنصر يوم الجمعة 30 يناير 1885 [1] ، وليكون السودان برمته تحت حكمها ، وليبدأ استنفار القبائل للثورة ضد الحاميات الحكومية المنتشرة في كل بقاع السودان ، دون أن يتكبد محمد المهدي عناء الوصول إليها ، وبهذا تكون الثورة المهدية قد وصلت قمة شعبيتها .

هنا نتساءل عن الآثار السياسة والاقتصادية والاجتماعية (ثقافية ودينية) لهذه الثورة، بعد نجاحها في السيطرة على السودان ككل ، وإنهاء الحكم التركي المصري والتغلغل البريطاني فيه .

فمن الناحية السياسية ، أصبحت السودان موحدة قوية تحت حكم أحد أبنائها، وهو محمد المهدي الذي كان على رأس النظام السياسي ، الذي هو نظام ثيوقراطي، بحيث يضع في يد الحاكم سلطات آلهية مطلقة ، وبالرغم من ذلك إلا أن محمد المهدي قد وزع السلطات على معاونيه الذين سماهم الخلفاء الراشدين ، منهم خليفة الصديق عبد الله التعابشي من قبائل البقارة ، الخليفة أبو بكر الصديق ، والثاني علي ودحلو من عرب دغيم ، خليفة الإمام عمر الفاروق ، الثالث محمد شريف (ابن عمه)، خليفة الإمام علي ، والرابع (أي خليفة الإمام عثمان) خص به محمد السنوسي (صاحب الطريقه السنوسية في ليبيا) ، فرفضه فظل فارغاً .

وبالتالي تشبه بالرسول ﷺوبدولته ، بالرغم من أن الرسول ﷺ لم يعين خلفاءه من بعده ، فتعين المهدي لتلك الشخصيات الثلاثة السابقة؛ لأنهم كانوا يمثلون مناطق السودان الرئيسية الغرب والوسط والشمال ، ورغم أن الشرق لم يكن له خليفة إلا أن أمير الشرق عثمان دفقه كان له وضع مميز وسلطات ، مثل الخليفة عبد الله التعايشي على جميع قبائل غرب السودان كالتعايشه والرزيقات والحمر ، وضم إليهم الجهادية وأولاد الريف ، وعقد للخليفة على ودحلو على وسط السودان على عرب

(1) للاطلاع بالتفصيل على سير هذه المعارك الموجزة ينظر نعوم شقير ، ص 335 - 588 ، محمد سعيد القدال ، ص 87 - 121 ، رأفت الشيخ ، ص 284 - 285 وهنري ويسلنغ ، مرجع سابق ، ص 108 - 113 .

دغيم وكنانه وخصه بالراية الخضراء ، أما شمال السودان فخصه بالخليفة محمد شريف، الذي خصه بأنصار السودان الأوسط ، وهم أنصار دنقله وبربر والخرطوم وسنار ، وضم إليهم الجلابه وأولاد النيل ، وجعل رايتهم الراية الحمراء ولم يقتصر توزيع السلطات على الخلفاء ، بل عين المهدي عمالا ونوابا وأمناء وأمراء ، فقادة الجيش يعرفون بالأمراء . (1)

أما الأساس النظري الذي قام عليه نظام الحكم في السودان ، فهو الكامن في العودة للجذور أو الأصول ، أي التفرد بمذهب اجتهادي خاص في المسائل التي وجد فيها اختلاف بين المذاهب الأربعة (المالكية ـ الشافعية ــ الحنفية ــ الحنبلية) ، وألغى بعضها بحيث رفع هذه المذاهب ، وأمر بإحراق كل كتب التفسير وغيرها من الكتب الدينية والعلمية ، بحيث لم يبق في السودان إلا القرآن الكريم والصحيحين كأساس يجد فيها الناس ، ويستنبطون منها ما يخص المسائل التي تهمهم ، وفي هذا سلبية خطيرة؛ لأنه حرم السودانيين من كثير من الأفكار الواردة في تلك الكتب ، التي أفرزتها ظروف خاصة بها ، وهذا واضح في قوله : « و ما للعبد إلا الأعمال الموافقة للسنة والكتاب ومن لم يجتهد في ذلك بشق الأنفس خسر الدارين ، وأن هذا الاجتهاد هو الوسيلة الوحيدة لتقويم السنة والهجرة بالدين مما عليه من الانطباعات الزمنية » . (2)

إذاً فما دعا إليه هو على أساس سلفي ، ومن ثم كانت حكومته مثلما وضح سابقاً أنها على أسس سلفية صرفة ، وكلها محاولات للإصلاح من خلال التعمق في فهم النصوص الواردة في القرآن والسنة والاجتهاد فيها .

وهكذا أصبحت السودان تحت الدولة المهدية كنتيجة لسنوات المجهود العسكري لها من عام 1881 إلى عام 1885 (عهد محمد المهدي) ، ثم أربعة عشر عاماً متلاحقة بعد وفاته أي من عام 1885– 1899 ، فالأهداف السياسية العسكرية في حياة المهدي ثم خليفته لم تتوقف بالسيطرة على الخرطوم ، وإنما التطلع للتوسع في مصر والشام والقسطنطينية ومراكش ووادي والسوكوتو وليبيا (برقة) وإلى أوروبا .

وهذا واضح من مناشير المهدي المرسلة إلى تلك الدول حكومات وشعوباً ، وذلك بالجهاد ضد الإنجليز الذين اعتبرهم أعداء الله ، والترك الذين اعتبرهم أيضاً

(1) شقير ، ص 349- 350 ، وسبنسر ترمنجهام ، ص153 والقدال ، ص123 - 125 .
(2) شقير ، ص 609 ، القدال ، الصفحات السابقة نفسها .

كفرة ، ولأجل نشر الإسلام الصحيح ، والقضاء على البدع والمحرمات المباحة ، ففي رسالته للخديوي توفيق يقول : (بشرني سيد الوجود ﷺ بالنصر على كل من يعاديني وقلدني سيف النصر وأيدني بقذف الرعب في قلوب أعدائي . . . وأخبرني بأني أملك جميع الأرض . .) [1]

والغرض من احتلال مصر « إحياء الدين وإظهار آثار الأنبياء والمرسلين » أما أسباب هذا الاحتلال ، فلأن الخديوي توفيق قد سلم (أمر أمة محمد ﷺ لأعداء الله الإنكليز وأحللت لهم دماءهم وأموالهم وأعراضهم فجاءت الانكليز بكبرهم وخيلائهم واعتمادهم على غير الله فلما سول الشيطان لهم إدراك غور دونهم بالخرطوم وأيست من هداية أهله وعلمت أن تكرار الإنذارات لا ينفعهم . . . حقت عليهم كلمة العذاب » [2]

وفي جهاد الأتراك يقول : قد أمرني النبي ﷺ بجهاد الترك وقال لي إن الترك كافرون بل هم أشد الناس كفراً ونفاقاً يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم » [3]

وبالتالي « ما كان يحسن منك أن تتخذ الكافرين أولياء من دون الله وتستعين بهم على سفك دماء أمة محمد » [4] وقد ختم هذا المنشور بتخيير الخديوي التوفيق بين التسليم وإجابة الدعوى ، أو الإعراض والرفض وبالتالي هزيمته والوقوع بين يدى المهدي القادم نحو مصر بجنوده ، ولتحقيق ذلك جعل المهدي النقطة المركزية للتعاليم المعتمدة عليها في تنظيم الدولة المهدية هي الإيمان بالآخرة ، باعتبارها حكم الله على الأرض عن طريق خليفته المهدي ، ولتسهل من خلالها الدعوة للخدمة العسكرية ، وقد اعتمد على ذلك بعد الرؤيا التي قصها عام 1883 بقول الرسول ﷺ لمحمد المهدي (كما صليت في مسجد الأبيض ستصلي أيضاً في مسجد الخرطوم ثم في مسجد بربر ثم في مسجد مكة ثم في مسجد القدس ثم في العراق ثم في الكوفة) .

إذاً فحركة المهدي من خلال رسالته الموجهة للخدوي توفيق وأهل مصر، وكذلك إلى أهل مراكش وفاس ، وإلى وادي ، وإلى دولة الخلافة في السوكوتو خصوصاً إلى حياتو بن سعيد بن محمد بلو بن عثمان بن فودي ، كلها تبين المسحة

---

(1) شقير ، ص591 .
(2) المصدر نفسه ، ص593 .
(3) المصدر نفسه ، ص593 .
(4) المصدر نفسه ، ص611 .

العالمية للمهدية ، والتي بهـا تخطـت حـدود الـسودان المحليـة في إصـلاحه إلى الـوطن العربي والعالم الإسلامي والقارة الأفريقية ، فقد أصبح حياتو سعيد بن محمد بلو سلطان سوكوتو هو نائب للمهدي في غرب أفريقيا ، حيث بلغت دعوته أوجهـا في عهـد عمـر ابن علي (1881 – 1891) [1] .

وبوفاته نلـتمس هـذه المـسحة برسـائل خليفتـه عبـد الله التعايـشي مجـدداً ، إلى الخديوي توفيق وأهل مصر ، وإلى السلطان عبد الحميـد الثـاني في القـسطنطنية ، وإلى قبائل نجد والحجاز (كقبيلة قريش) ، وأهل المدينة ، وإلى الملك يوحنا ملك الحبشة ، وإلى سلطان ودای ، وإلى سوكوتو وإلى حياتو بن سعيد بن محمد بلـو بـن عثمـان بـن فودي ، وإلى محمد السنوسي ، وإلى أوروبا لجلالة الملكة فكتوريا ملكـة الانكليـز [2] ، بحيث تخرج الرسالة لأول مرة نحو غرب أوروبا ، معقل الاسـتعمار الإنجليـزي بعـدما خرجت إلى شرقها ، للأتراك في القسطنطينية للسلطان عبد الحميد الثـاني ، ومعلـوم أن عبد الله التعايشي قد أصبح الخليفة بعد وفاة محمـد المهـدي ، يـوم الأربعـاء الرابـع مـن رمضان عام 1302 هـ الموافق 22 يونيو الصيف 1885 ، بعد الحمى التي أصابته لتلازمـه اسبوعاً ليموت بعدها ، وذلك بعد خمسة أشهر مـن فتحـه الخرطـوم ، وسـيطرته علـى السودان كاملاً . [3]

وبالانتقال إلى الآثار في الجوانب الاقتـصادية والاجتماعيـة ، نـرى أن إصـلاحاته كانت مفروضة بالقوة ، مثله مثل سلفه عثمان بن فودي ، وهذا واضح في نص البيعة التي بايعه بها رفاقه وأصحابه ومؤيدوه : « أما بعد فقد . . . بايعناك على توحيد الله ولا نشرك به أحداً ولا نسرق ولا نزني ولا نأتي ببهتـان ولا نعـصيك في معـروف ، بايعنـاك علـى زهد الدنيا وتركها والرضـى بمـا عنـد الله رغبـة بالـدار الآخـرة ، وعلـى أن لا نفـر مـن الجهاد » [4]

ومن الناحية الاقتصادية ، أنشأ محمد المهدي جهـازاً مركزيـاً ، سمـي بيـت مـال المسلمين ، حفظ أموال الجند والعشور والزكاة والغنائم والغرمـات ، ومنـه يـتم الإنفـاق

(1) المصدر نفسه ، ص592 .
(2) المصدر نفسه ، ص 696 – 697 ، وكذلك علي أيوب ناجي لمحات عن الإسلام في نيجيريا ، ص101 .
(3) للاطلاع على رسائل امحمـد المهـدي مفـصلة ينظـر شـقير ، ص 590 – 597 ، أمـا رسـائل خليفتـه عبـد الله التعايشي فهي في الصفحات من ص 677 – 697 .
(4) شقير ، ص603 ، والقدال ، ص119 .

على المجاهدين كافة بحسب عددهم وحالهم ، وهنا ركز على المجاهدين الذين انقطعوا عن أسباب رزقهم ، أما إذا كانوا أصحاب حرف ، فإنه عند انتهاء الجهاد يعودون لحرفهم ، وبالتالي ابتعد عن تقسيم الغنائم أو الفيء ، حسب ما جاء في القرآن الكريم، خمس لبيت المال وأربعة أخماس للمجاهدين ، وأمام هذا برزت مشكلة هي إخفاء المجاهدين للغنائم التي يحصلون عليها ، والاندفاع إليها عند بداية المعركة ، الأمر الذي يؤدي لهزيمتهم ، وهنا قرر محمد المهدي ضرورة استيعاب مهاجرين جدد ، حتى لا يصرف لهم ويذهب ثواب الهجرة ؛ لأن في الصرف فتنة ، وبيت المال أمواله محدودة، كما حذرهم من إخفاء الغنائم بقوله : « إن من أخذ إبرة من الغنائم تقع يوم القيامة في قعر بحر من نار ، ويؤمر بأن يخوض في البحر ليخرجها » (1)

إضافة لذلك جعل ملكية الأرض للجميع ، وحث على استعمالها المشترك بين الناس ، وأصبح بيت المال يسيطر بطريق مباشر ، وغير مباشر على السياسة الزراعية للدولة ، وفي فبراير 1885 أمر بصك نقود جديدة لدولته الجديدة ، وهي جنيه ذهبي قريب الشبه بالجنيه المصري ، كتب على وجهه الأول « ضرب في الهجرة سنة 1302 »، وعلى الوجه الثاني « بأمر المهدي » ، كما ضربوا منه نصفاً وربعاً ، كما وضع المهدي في يد بيت المال سلطات واسعة لتنظيم حركة التجارة الداخلية ، ليكون الجهة العليا التي تنظمها وتسيرها ، وبالذات احتكار السلع الضرورية ، مثل الصمغ ؛ لأجل إخضاع النشاط الاقتصادي لاحتياجات الحرب .

ناهيك عن الضرائب الممثلة في الزكاة ، التي هي المصدر الثاني لدخل بيت المال باعتبارها فريضة ، وكمخرج من أزمة الضرائب التي كرهها الناس ، حيث اعتبر محمد المهدي عام انتصاره في معركة شيكان على ضباط هكس سنة 1883 ، هو بداية لتطبيق نظام الزكاة ، بعدما فرضه عام فتحه للخرطوم (يناير 1885) .

وقد أدرك محمد المهدي أن هذه الأمور لا يمكن لها السير في الطريق الصحيح، دونما وجود قضاة للحكم في المسائل الشرعية ، سواء السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية ، من أجل تطبيق العدالة من الناس ، ورفع الأمور التي تصعب عليهم ، من هنا كون مجلساً للأمناء ، وجعل على رأس القضاء الشيخ أحمد ود جباره « من علماء الأزهر » ، ولقبه بقاضي الإسلام ، وجعل دونه قضاة ونوابا ، فالقضاة لهم الحكم في

(1) شقير ، ص349 ، وحسن محمود أحمد ، ص370 .

المسائل الشرعية الأهلية ، وأما النواب فلهم الحكم في الغنائم ، وما يتعلق ببيت المال، أي أنه أوكل لهم النظر في الأمور الدنيوية ليتفرع لأمور الدين بنفسه [1]

ومن الناحية الاجتماعية ركز على الأحوال الشخصية الاجتماعية ، كالزواج والطلاق ، وعلى قضية المرأة بوجه خاص ، والبداية بمحاولة المساواة بين الجميع ، وذلك بإبطاله الرتب والألقاب الرسمية وغير الرسمية ومساواة الغني بالفقير ، إذ فرض على الجميع لباساً واحداً ، وهو الجبة المرقعة مثل التي يلبسها ، ناهيك عن ضوابط أخرى ، مثل قطع يد السارق وتحريم الاحتفال بالأعراس بالإسراف والتبذير ، ففي هذا المجال أي الزواج خفض مهر الزواج ، فجعله عشر ريالات وبدلتين وقرباناً للبكر ، وللثيب خمسة ريالات وبدلتين وقربانا ، وعاقب من خالف ذلك بمصادرة أمواله إلى بيت المال ؛ لأن النفقات الباهضة حالت دون الاقتران ، كما أبطل الرقص والغناء وخصي العبيد ومنع البكاء على الميت ، وقد أبطل السحر والتغريم وكتابة الحجب ، وحرم شرب الدخان ومضغه ، وشرب الحشيش والخمرة ، ومن يخالف يجلد ثمانين جلدة، ويحبس سبعة أيام مع مصادرة أمواله كاملة لبيت المال ، إضافة للجلد والحبس لمن يرمي أخاه بألفاظ شنيعة (كالكلب والخنزير) ، إضافة لمنعه زيارة قبور الموتى .

واهتم بالمرأة ، وقرر أن الزواج لا يتم بإكراهها وإنما بالتراضي ، فيحق لكل امرأة تتزوج ، وهي مكرهة ، أن ترفض الزواج ، لأنه باطل ، ومنع النساء من لبس الذهب والفضة والخروج عاريات ، بل أمر بالحجاب للمرأة، واتخذ إجراءات صارمة بشأنه ، وأعاد رجم الزاني والزانية ، إذاً كل تلك الإجراءات اتخذ لتسيير المجتمع واستقامته اجتماعياً ، والقضاء على جميع العادات الغريبة التي لا تسير مع الشريعة الإسلامية . [2]

وقبل وفاة المهدي أصدر كتاباً سماه (الراتب) دأب على كتابته منذ إشهار دعوته علناً ، فالكتاب صغير الحجم (**128** صفحة ــ **10** ـ **13** . **5** سم) يشمل آيات قرآنية وأحاديث شريفة وأدعية ، إذ يذكر أنه فرض حفظه وتلاوته يومياً بعد صلاة الصبح والعصر [3] ، وجعله ضمن الأشياء الستة الموصلة لله بعد الشهادة وصلاة الجماعة

(1) شقير ، 599 ، للمزيد حول الجوانب الاقتصادية ينظر الصفحات ، ص598 - 601 وكذلك القدال ص 128 - 129 ، وحسن محمود أحمد ، ص370 .
(2) شقير ، ص 351 ، والقدال ، ص 125- 126 .
(3) شقير ، ص 610 - 616 ، والقدال ، ص129 - 133 ، وسبنسر ترمنجهام ص 154- 155 .

والجهاد في سبيل الله ، والامتثال لأوامره ونواهيه ، والإكثار من كلمة التوحيد وتلاوة القرآن ، وتلاوة الراتب الذي يظهر منه أثر الصوفية العميق للبناء الفكري للمهدي ، ويذكر أنه بعد القضاء على الدولة المهدية لم يجد الاستعمار البريطاني ما يمنع تداول الراتب حيث عرض عام 1917 ، مع منشورات المهدي الأخرى أمام قاضي القضاة الشيخ المراغي ، ليبدي رأيه فيها ، فرفض كل المنشورات وأوصى باستعمال الراتب الذي أصبح « الكتاب » لمن سمي بالمهدية الجديدة عام 1924 ، كحركة سياسية ، أسسها عبد الرحمن ابن الإمام المهدي [1] . وهذا بالتأكيد أثر كان رمزاً حياً للسودانيين في كتابات محمد أحمد الصوفي ، وليس محمد المهدي .

وفي ختام الورقة البحثية يتضح لنا أوجه الشبه والاختلاف بين الزعامتين ـ الشيخ عثمان بن فودي والإمام محمد المهدي ـ كالتالي :

أولاً : كلاهما دأب منذ صغره نحو التعلم والتفقه في علوم الدين ، بدءاً بالقرآن الكريم وتفسيراته وكتب السنة وغيرها ، لتسهم في تلميع نشأتهما الدينية والفكرية ، وفي الوقت الذي كانت فيه نشأة الشيخ عثمان بن فودي بدعم وإصرار من أسرته : أبيه ، أمه ، جدته ، أعمامه ، أخواله ، بيئته المحلية ، نجد الخلاف عند محمد المهدي بحيث إن إصراره نحو التعلم في الخلاوي اعتبر جهاداً وتحملاً بشق النفس ، نظراً لأن رغبة أسرته تتمثل في امتهانه حرفتها ، وهي التجارة (صناعة القوارب) مصدر دخلها ، وكذلك لتميزه بين إخوته بالذكاء البالغ الملاحظ عليه ، ومن ثم كان تنقل الأسرة وراء تحسين معيشتها دافعاً لتأثر الابن بأبناء جيله المنتظمين في الخلاوي ، في الخرطوم والعمل مع أخوته في آن واحد .

ثانياً : كلتا الشخصيتين أصبح لهما مميزات خاصة من رفاقهم في الصفات والمعاملة ، وحسن الخلق والتدين وحفظ القرآن وتفسيره ، والإلمام بالعلوم الفقهية من جراء ترحالها للدراسة في كنف كل شيخ ، تفوق سيرته العلمية وسمعة شيوخ مدينته وما جاورها ، ليترعرع الشيخ عثمان في سلك الطريقة القادرية ، والإمام محمد المهدي في الطريقة السمانية بالأخذ من شيوخها الوارثين لها ، ولتتبلور شخصيتها الفكرية، والدينية الصوفية للبدء في التفكير للقضاء على البدع العالقة بالعقيدة الإسلامية ، ومحاولة العودة للجذور بالاعتماد على القرآن الكريم والسنة ، ناهيك عن التطلع

(1) سبنسر ترمنجهام ، ص154 .

لمقاومة التغلغل البريطاني ، والحكم التركي المصري للسودان .

ثالثاً : لقد أسهم ترحالهما في بلديهما وما جاورهما ، في التعرف بوضوح على الأحوال السائدة ، ومعاناة السكان ، ليظهر لنا الشبه في بعض هذه الأوضاع ، كانتشار البدع بالعقائد الإسلامية وكذلك الضرائب الباهضة المفروضة على السكان ، وأوضاع تجارة الرقيق وتأثيرها على الجانبين ، وبالتالي تميز الشيخ عثمان بن فودي في جهاده ضد الحكام الوثنين ، أما الإمام محمد المهدي ، فكان جهاده ضد الحكم الأجنبي « الحكم التركي المصري» ، والتغلغل البريطاني المسيحي في السودان .

رابعاً : وبخصوص فكرة المهدي المنتظر نجد أن الشخصيتين قد اختلف حولهما، فالشيخ عثمان بن فودي كان في فترة ، نبه فيها العلماء بأن المجدد الثاني عشر سيظهر فيها ، وهو المهدي المنتظر في غرب أفريقيا ، في القرن الثالث الهجري (أي في الفترة فيما بين 1785ـ 1881) ، وما إن برز الشيخ عثمان بمظهره وفكره وتصوفه، وخروجه على الأوضاع المظلمة وانتصاره عليها ، حتى رآه بعض مؤيديه أنه المهدي المنتظر ، لكنه رفض ذلك ونهاهم عنه ليؤلف مخطوطه ، بتحذير الإخوان من ادعاء المهدية آخر الزمان ، مخصصا موضوعه للمهدي المنتظر وعلاماته ومكان ظهوره ودور الفلاني ، عندما يظهر ، وما إن يعتزل العمل السياسي بعد ما رأى أنه قد أدى دوره بقيام دولة الخلافة الإسلامية في السوكوتو ، حتى يرى أحد اتباعه السابقين في الجهاد، وهو أحمد اللو بأنه المهدي المنتظر ، والمجدد في غرب أفريقيا في أقليم ماسنة وغيره ، وهذا يدل على انتشار الفكرة ، وخصوبتها في غرب أفريقيا .

ومن الغرابة أن تنتقل الفكرة إلى سودان وادي النيل عبر الحجاج والقوافل التجارية ، لتكون شائعة في عهد محمد أحمد الصوفي ، الذي ناضل في أسرته لكي يتعلم ويترحل ، ويجاهد بلقمة عيشه على استمرار هذا التعليم من الشيوخ البارزين في عهده ، والدروس في الخلاوي الصوفية ، وخصوصاً تعلمه الأساسي للطريقة السمانية من حفيد مؤسس الطريقة ، وهو الشيخ محمد شريف نور الدايم ، ثم اتجاهه لوراثة هذه الطريقة من الشيخ (القرشي ود الزين) ، فكل هذه خطوات رصينة هادفة في درب الصوفية ، تؤكد أنه يهدف لشيء أعظم ، يجعل كل ما تعلمه نظرياً ، يحققه عملياً على أرض الواقع ، يميزه عن المتصوفين باستعماله لفكرة المهدي المنتظر الذائعة الصيت والانتشار في السودان ، وما إن يجتذب الناس من حوله لتنجح دعوته وينتصر على أعدائه ، حتى يكتب الرسائل للدولة المحاربة ، منها رسالته إلى حياتو بن سعيد بن

السلطان محمد بن الشيخ عثمان بن فودي ، سلطان الدولة الخلافية الإسلامية في السوكوتو ، ليجيبه إلى ما دعاه إليه ، وليكون نائبا للمهدي في غرب أفريقيا ، بحيث بدأ ينظم لهذه الدعوة منذ عهد عمر بن علي أعوام 1881– 1891 ، ولتبلغ أوجها عام 1891 – 1892 في عهد عبد الرحمن عتيق سلطان سوكوتو .

ومثلما كان حال الشيخ عثمان بن فودي بأن فكرة المهدي المنتظر لم تنته في حياته وبعد وفاته باستمرارها ، فإن الحال تشابه في السودان ، ففي حياة محمد المهدي ظهر شخص يدعى فخر الدين حسن معلاوي 1884 ، يدّعي أنه المهدي المنتظر ، وبعد وفاة محمد المهدي عام 1885 ، ظهر شخصان هما أبو جميزه في الغرب (غرب السودان) ، ومحمد آدم البرقاوي في منطقة القلابات ، كل هذا يؤكد رواج الفكرة قبيل وأثناء وبعد وفاة محمد المهدي ، بحيث إنها لم تكن خاطراً أكاديمياً يخطر على بال محمد أحمد الصوفي فجأة .

خامساً : كلاهما اعتمد على الآيات القرآنية الدالة على وجوب فريضة الجهاد والطاعة ، بعدما فشلت الدعوة السلمية للشيخ عثمان بن فودي ، وكذلك عدم الإجابة السلمية على رسائل المهدي ، وليبدأ تحفيز الأنصار والمؤيدين بجنة الخلد والدار الآخرة .

سادسا : التشابه في كثرة البشائر الدالة على ظهورهما من الأحاديث الشريفة خصوصاً : « إن الله يبعث لهذه الأمة عند رأس كل قرن من يجدد لها دينها » ، ناهيك عن البشائر من الأولياء الصالحين التي أشرنا إليها ، والتشابه هنا في اعتبار هذا الحديث الشريف يبشر بظهور المهدي ، والبشائر العامة والخاصة بهذه الفكرة التي ليست مخصصة في ذات محمد أحمد الصوفي الذي رأى في نفسه اتخاذها لتساعده على تحقيق أهدافه العملية الواقعية .

سابعاً : كان وجه الخلاف بينهما ، في ترك الشيخ عثمان الكتب المتداولة للمفكرين وللمذاهب والطرق الصوفية وكتب السنة والفقه ، كل هذا يتيح تنوع الفكر، بحيث لم يلغ إلا الكتب التي فيها أحاديث شريفة مدسوسة ومنسوبة للرسول ﷺ، والنتيجة كان الشيخ صوفياً أشعرياً مالكياً قادرياً .

وله عدة مؤلفات تفوق الخمسين ، لم نجده قد فرض حفظها وتلاوتها ، وبالتالي اختلف محمد أحمد عنه بأن جعل القرآن الكريم والسنة (صحيح مسلم والبخاري)

كأصل للاجتهاد ، بعدما رفع جميع الكتب والمذاهب ، وأمر بحرقها ، وبالرغم من أهمية الاجتهاد في المسائل العالقة ، إلا أن ذلك لم يتح مجالا لتعدد الآراء والأفكار ، وكان القرار تعسفيا ، بحيث أنهى الاختلاف والتوصل لعدة أحكام ، قاسى أصحابها الاجتهاد والصبر والتأمل ، حتى وصلوا إليها ، وهذه سلبية واضحة ونظرة فوقية ، خصوصاً بعدما أصدر كتابه الراتب ، ليكون الثالث المفروض على الناس حفظه وتلاوته ، يومياً بعد صلاتي الصبح والعصر .

ثامناً : من خلال قص محمد المهدي رؤياه على أصحابه ، نجد أن الرسول ﷺ قد أمره بالدعوة ـ حسب قوله ـ بحضور الشيخ عبد القادر الجيلانى ، بالتالى نلحظ له الأمر الذي تشابه مع الشيخ عثمان ، الذي رآه في الحلم ، عندما أمر بالجهاد لفرض الدعوة وتصحيحها .

تاسعاً : كلاهما رأى أن أمر دعوته موجه لهما من الرسول ﷺ ، الذي دعاه كل منهما بسيد الوجود ﷺ ، باعتبارهم متصوفة ، وكان ذلك بحضرة الخضر والخلفاء الأربعة والشيخ عبد القادر الجيلاني ، ومن ثم التشبه كذلك بالرسول ﷺ في بدء دعوته بالوحي ، وعمره أربعون سنة ، فالشيخ عثمان رأى ذلك في الرؤيا ، وعمره فعلاً أربعون سنة كما وضحنا سابقا ، أما محمد المهدي ، فبالرغم من الرؤيا التي قصها ، وقول المؤلفين إن عمره أربعون سنة ، إلا أنه لم يكن في الحقيقة في الأربعين سنة ، وإنما في السابعة والثلاثين 1881 – 1844 ، أي على مشارف الأربعين ، إضافة للتشبه بالهجرة ، أي هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة ، في هجرة الشيخ عثمان بن فودى من غوبر إلى دغل ، ومن جزيرة أبا إلى جبل قدير في جبال النوبة لمحمد المهدي ، ناهيك عن تشبيه أولى معاركهما اللتين انتصرا فيهما بمعركة بدر ، وهذا ما جعل الأنصار يهاجرون إليهم، ويكثر أتباعهما ، وشهرتهما بين أبناء بلديهما والمناطق المجاورة .

عاشراً : بعد انتصارهما في المعارك التي خاضها الشيخ عثمان لمدة خمس سنوات (1804 – 1809) ، ومحمد المهدي الخمس سنوات من عام (1881 – 1885)، كان التشابه في عدد سنوات الحرب التي خاضاها ، وهي خمس سنوات ، وأسس الشيخ عثمان دولة الخلافة الإسلامية شمال نتجيريا ، وعاصمتها السوكوتو ، وكذلك محمد المهدي وحد السودان برمته تحت الدولة المهدية ، وعاصمتها الخرطوم ، لكن الاختلاف بينهما كان في اعتزال الشيخ عثمان ، بعدما رأى أنه أدى واجبه الجهادي منذ عام ، 1810 ليقسم دولته بين ابنه محمد بلو وأخيه عبد الله بن فودى ، لكن محمد المهدي لم يعتزل

عن السياسة والحرب ، بل قرر مواصلتها وهي تبشر بدعوته عالمياً ، في مصر والشام والقسطنطنية ووادي والسوكوتو ، لولا أنه توفي محموماً عام 1885 ، ليترك نائبه عبد الله التعايشي ليخلفه ، مثلما خلف أبوبكر الصديق ﷺ الرسول ﷺ ، وإن كانت خلافة أبي بكر الصديق ﷺ للرسول ﷺ جاءت دون أمر من الرسول ﷺ ، فإن خلافة عبد الله التعايشي جاءت بأمر من محمد المهدي ، كونه الخليفة الثاني له المعين في حياته ، الذي يواصل نهج سلفه ببعثه رسائل إضافية وزيادة ، إلى الملكة فيكتوريا والحبشة وقبائل شبه الجزيرة العربية (خصوصاً قريش) ، تدعوها كلها بالتسليم والخضوع لنائب المهدي ، والحضور للخرطوم ، وهنا اختلف عن الشيخ عثمان الذي أتته الرسائل المحبذة لدوره وجهاده من سلطان المغرب ، محمد الباقر بن محمد العدل (سلطان أهير) ، الذي بارك جهاد الشيخ وقدر أعماله ، أما رسائل خليفته ابنه محمد بلو ، كتلك التي بعثها للملكة فيكتوريا ، فنجدها تدعو لتحسين معاملة رعايا المسلمين في بريطانيا ، وفي هذا خلاف عن محور رسائل المهدي ، وخليفته الداعية للاذعان والتسليم .

حادي عشر : التشابه في أهمية النتائج والآثار العائدة على البلاد ، في نواحيها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، بالقضاء على البدع والوثنية ونشر الإسلام على أصوله ، والقضاء على التغلغل البريطاني والحكم الأجنبي (التركي المصري) ، لنجد دولاً إسلامية قولاً وفعلاً .